جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية بإيتاي البارود
المجلة العلمية

(سمت بيان سيدنا أنس وسيدنا جابر -رضي الله عنهما- في سياق أحاديث المعجزات)

إعداد

محمد عبد اللاه حسن عبد العال

مدرس البلاغة والنقد في كلية اللغة العربية بأسيوط

(العدد السابع والثلاثون)

(الإصدار الرابع .. نوفمبر)

(١٤٤٦هـ - ٢٠٢٤م)

علمية - محكمة - ربع سنوية

الترقيم الدولي: ISSN 2535-177X

سمت بيان سيدنا أنس وسيدنا جابر –رضي الله عنهما–
في سياق أحاديث المعجزات

محمد عبد اللاه حسن عبد العال
قسم البلاغة والنقد، كلية اللغة العربية بأسيوط، جامعة الأزهر، مصر.
البريد الإلكتروني: drmohammedabdellah982@azhar.edu.eg

الملخص:

تلقي هذه الدراسة الضوء على سمت بيان سيدنا أنس وسيدنا جابر –رضي الله عنهما– من خلال أحاديث المعجزات، وتقوم بتحليل البناء والمكوّنات اللغوية التي شكَّلتْ صورة بيان الصحابيين الجليلين، ومن ثمّ ينماز كل بيان منهما، وتتكشف الفوارق التعبيرية واضحةً جليّةً أشبه ما تكون بقسمات الوجوه، وقد اشتملت الدراسة على مبحثين: كشف أولهما عن سمت بيان الصحابيين الجليلين بين الإيجاز والإطناب، وكشف الآخر عن سمت بيانهما بين قوة الأسلوب ورقّته، وقد اشتمل كل مبحث منهما على مطلبين، وتوصّلت الدراسة إلى نتائجَ منها ما يمثل سمات مشتركة بين الصحابيين الجليلين، وجاء على رأسها: إشباع المعنى بالتفصيل والإطناب تبعًا لشهودهما المعجزة أو شدة في انفعالهما بها، والدقة البالغة في التعبير عن المراد عن طريق وضع الألفاظ على حاقِّ المعاني، والتَّخير من أحوالها ما ينكشف به لبُّ المعنى، وذكر الزمان أو المكان في بداية الكلام عند الميل إلى الإيجاز؛ لأن ذلك مما يعين على سرد الأحداث بطريقة منظّمة مركّزة، ومنها ما يمثل سمات تفرَّد بها كل منهما عن الآخر، وكان أهم ما تفرد به سيدنا أنس رضي الله عنه أنه يصدّرُ بيانه بالكلمات التي لها من الدلالة القدر الكبير في تصوير المعنى وتمثيله، وأنه يمتلك لغةً واثقةً عبَّر بها عن أدقّ تفاصيل ما حكاه عن النّبي صلى الله عليه وسلم دون شكّ أو تردد، بينما تفرَّد سيدنا جابر رضي الله عنه بأنه يغلب عليه إسناد الفعل إلى ضمير المتكلمين "نا" فيقول: (غزونا، سافرنا، أقبلنا) لأنه يريد أن يضفي على كلامه صفة الاشتهار، كما أنه يميل إلى القسم لتأكيد ما يريد إثباته من المعنى.

الكلمات المفتاحيّة: سمت، بيان، أنس بن مالك، جابر بن عبد الله، المعجزات.

I named the statement of our master Anas and our master Jaber - may God be pleased with them - in the context of the hadiths of miracles

Muhammad Abd Allah Hassan Abdel -Al
Department of Rhetoric and Criticism, College of Arabic Language in Assiut, Al -Azhar University, Egypt.
Email: drmohammedabdellah982@azhar.edu.eg

Abstract:
This study sheds light on the clarity of the statements of our Master Anas and our Master Jabir. May Allah be pleased with them through the miraculous hadiths, analyzing the structure and linguistic components that formed the portrayal of the statements of these noble companions. Thus, each statement becomes distinct, and the expressive differences become clear, resembling facial features,The study consists of two sections: the first reveals the clarity of the statements of the noble companions between brevity and verbosity, while the second reveals their statements between the strength of style and delicacy. Each section contains two subsections.,The study reached several results, including shared characteristics between the two noble companions, the most important of which is the richness of meaning through detail and verbosity, depending on their witnessing of the miracle or their intense reaction to it. Additionally, there is a precise expression of intent through the appropriate placement of words, choosing the conditions that reveal the essence of the meaning, and mentioning time or place at the beginning of the speech when leaning towards brevity, as this aids in narrating events in an organized and focused manner, Moreover, the study highlighted characteristics that each companion uniquely possessed. The most significant feature of our Master Anas is that he begins his statements with words that have a significant implication in portraying and representing the meaning, and he possesses a confident language that expresses the finest details of what he reported about the Prophet, peace be upon him, without doubt, or hesitation. In contrast, our Master Jabir is distinguished by his tendency to attribute actions to the first-person plural pronoun "we," as in "we invaded," "we traveled," and "we approached" because he wants to impart a sense of familiarity to his speech. He also tends to use oaths to affirm the meanings he wishes to establish.

Keywords: She called, Bayan, Anas bin Malik, Jabir bin Abdullah, Miracles.

المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه

وبعد،،

فإن أكبر نعمة أنعم الله بها على الإنسان فصاحة لسانه بالبيان والتبيان، ولا شك أن دراسة سمت البيان من الدراسات المهمة التي أومأ إليها العلماء في تصانيفهم؛ لما فيها من فوائد جمّة، وكان العلامة الباقلاني أظهر من أشار إلى هذا النوع من الدراسة؛ حيث قال: "فكلام المقتدر نمط، وكلام المتوسط باب، وكلام المطبوع له طريق، وكلام المتكلف له منهاج، والكلام المصنوع المطبوع له باب، ومتى تقدم الإنسان في هذه الصنعة، لم تخفَ عليه هذه الوجوه، ولم تشتبه عنده هذه الطرق ". (١)

وذكر أن العالم لا يشذّ عنه شيء في معرفة طرق الكلام ووجوهه ومعرفة أنماطه ومراتبه، وجلَّى دقة هذا الباب بقوله: "وقد يتقارب سبك نفر من شعراء عصر، وتتدانى رسائل كُتَّاب دهر، حتى تشتبه اشتباهًا شديدًا، وتتماثل تماثلًا قريبًا فيغمض الفصل". (٢)

وألمح إلي سمت البيان صاحب كتاب النبأ العظيم الدكتور محمد عبد الله دراز وهو يتحدث عن تفوق القرآن العظيم على كل بيان، وأن ذلك كامن فيما "اتخذه في رصف حروفه وكلماته، وجمله وآياته، من نظام له سمت وحده، وطابع خاص به خرج فيه عن هيئة كل نظم تعاطاه الناس أو يتعاطونه" (٣).

(١) إعجاز القرآن للباقلاني ص ١٢٠ .

(٢) المرجع السابق ص ١٢٢ .

(٣) النبأ العظيم للدكتور محمد عبد الله دراز ص ١٣٦، ١٣٧.

وشيخ البلاغيين المعاصرين فضيلة الدكتور أبو موسى . أطال الله بقاءه ـ كلف جدًا بهذا النوع من الدراسة، إذ بيّن أن أكثر ما يشغله من الفنون البلاغية "دراسة تطور تراكيب الكلام في الشعر والنثر وفي كل ما يجري به اللسان، ولا شك أنك إذا قرأت نصًا من النثر رأيت عليه ميسم عصره" وقلت: هذا من كلام الجاهليين أو العباسيين، أو من كلام أهل زماننا"[١] ولتلك الأهمية البالغة لهذا الباب كان توجهي إليه بالدراسة، إضافة إلى بواعث أخرى أهمها: محاولة التعرف على سمت بيان كل من سيدنا أنس، وسيدنا جابر . رضي الله عنهما . " ففي نظم كل كلام، وفي ألفاظه . ولابد . أثر ظاهر أو وسم خفي من نفس قائله وما تنطوي عليه من دفين العواطف والنوازع والأهواء من خير وشر، أو صدق وكذب، ومن عقل قائله وما يكمُن فيه من جنين الفكر أي مستوره "[٢] كما أن دراسة سمت البيان تعد امتدادًا لما تحدث عنه الشيخ عبد القاهر . رحمه الله تعالى . وهو يضع الضوابط " التي تحدد فضل بعض القائلين على بعض من حيث نطقوا وتكلموا وأخبروا السامعين عن الأغراض والمقاصد وراموا أن يعلموهم ما في نفوسهم ويكشفوا لهم عن ضمائر قلوبهم "[٣] كما أنه من دواعي الشرف للباحث أن يلج باب السنة المطهرة، ويتعرف على البيان العالي لأصحاب القدر العالي النبي ﷺ وصحبه؛ فما سمحت قريحة بمثل كلامهم، وما استطاع أحد أن ينسج على منوالهم، فمن أراد اختلاب القلوب فلينسج على ذلك الأسلوب .

وقد كتب أستاذنا الدكتور أبو موسى في هذا الباب كتابه (شرح أحاديث من صحيح البخاري دراسة في سمت الكلام الأول) وما عدى ذلك فإشارات فقط مبثوثة في كتب العلماء، ومن ثمَّ كان تهيبي من ولوج هذا الباب الأعظم من

(١) مراجعات في أصول الدرس البلاغي للدكتور محمد محمد أبو موسى ص ١٩ .

(٢) رسالة في الطريق إلى ثقافتنا لأبي محمد محمود محمد شاكر ص ١٥.

(٣) دلائل الإعجاز للشيخ عبد القاهر الجرجاني ص ٤٣ .

أبواب الدراسة البلاغية؛ لدقة مسلكه خاصة بعد أن قرأت كلام شيخنا أبي موسى . وهو من هو في علوم البلاغة . يبين محصّلته من دراسة هذا الباب بقوله: "ومع كل ما بذلت من جهد في هذا فإن الذي أصبته منه كما قال معاذٌ العقيلي: كقابضٍ على الماءِ خانتْهُ فُرُوجُ الأَصَابعِ". (١)

وقد قامت الدراسة على مبحثين:

المبحث الأول: سمت بيان سيدنا أنس وسيدنا جابر –رضي الله عنهما– بين الإيجاز والإطناب، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: إطناب سيدنا أنس وإيجاز سيدنا جابر رضي الله عنهما.

المطلب الثاني: إطناب سيدنا جابر وإيجاز سيدنا أنس رضي الله عنهما.

المبحث الثاني: سمت بيان سيدنا أنس وسيدنا جابر –رضي الله عنهما– بين قوة الأسلوب ورقته، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: قوة أسلوب سيدنا أنس ﷺ في سياق معجزة حنين الجذع للنبيﷺ.

المطلب الثاني: قوة أسلوب سيدنا جابر ﷺ في سياق معجزة إخبار الشاة للنبي ﷺ بأنها مسمومة.

وإني لأرجو الله أن يكون هذا البحث لبنة صالحة فيما هيئ له وأن يكون مطلعًا مبشرًا بالمقصد الأسمى والغاية العظمى، وهي خدمة كتاب الله . تعالى . وسنة نبيه ﷺ وأدعو الله . تعالى . أن تكون أعمالنا خالصة لوجهه الكريم، وأن يوفقنا لشكر يوافي نعمه، ويكافئ مزيده، وأن يكتب لهذا البحث القبول، فهو ولي ذلك والقادر عليه.

(١) شرح أحاديث من صحيح البخاري دراسة في سمت الكلام الأول للدكتور محمد محمد أبو موسى ص ٢٣ .

المبحث الأول: سمت بيان سيدنا أنس وسيدنا جابر-رضي الله عنهما- بين الإيجاز والإطناب.

المطلب الأول: إطناب سيدنا أنس وإيجاز سيدنا جابر رضي الله عنهما

ورد اختلاف بيان كل من سيدنا أنس، وسيدنا جابر . رضي الله عنهما . بين الإيجاز والإطناب في سياق معجزة سجود البعير للنبي ﷺ فبينما سلكت رواية سيدنا أنس ﷺ طريق الإطناب والتفصيل سلكت رواية سيدنا جابر ﷺ طريق الإيجاز، ولا ريب في أن كلام الفصحاء "إنما هو شوب الإيجاز بالإطناب، والفصيح العالي بما دون ذلك من القصد المتوسط؛ ليستدل بالقصد على العالي، وليخرج السامع من شيء إلى شيء، فيزداد نشاطه، وتتوفر رغبته، فيصرفوه في وجوه الكلام إيجازه وإطنابه حتى استعملوا التكرار ليتوكد القول للسامع"[١] ويرجع التفصيل عند سيدنا أنس ﷺ إلى انبهاره بالمعجزة، ومن ثم حرص على تسجيل مشاهدها ليطلع عليها المستمع كأنها رأي عين، بينما يرجع إيجاز سيدنا جابر ﷺ إلى أن المعجزة حدثت عقب عودته من سفر صحبة النبي ﷺ ولأنها حدثت بغتة دون تمهيد فكان ذلك مظنّة الإيجاز .

رواية سيدنا أنس ﷺ :

روى الإمام أحمد بسنده عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أنه قَالَ: "كَانَ أَهْلُ بَيْتٍ مِنَ الْأَنْصَارِ لَهُمْ جَمَلٌ يَسْنُونَ عَلَيْهِ[٢]، وَإِنَّ الْجَمَلَ اسْتُصْعِبَ عَلَيْهِمْ، فَمَنَعَهُمْ ظَهْرَهُ، وَإِنَّ الْأَنْصَارَ جَاءُوا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالُوا: إِنَّهُ كَانَ لَنَا جَمَلٌ نَسْنَى عَلَيْهِ، وَإِنَّهُ اسْتُصْعِبَ عَلَيْنَا، وَمَنَعَنَا ظَهْرَهُ، وَقَدْ عَطِشَ الزَّرْعُ وَالنَّخْلُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ: " قُومُوا " فَقَامُوا، فَدَخَلَ الْحَائِطَ وَالْجَمَلُ فِي نَاحِيَتِهِ، فَمَشَى النَّبِيُّ ﷺ نَحْوَهُ، فَقَالَتِ الْأَنْصَارُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّهُ قَدْ صَارَ مِثْلَ الْكَلْبِ الْكَلِبِ، وَإِنَّا نَخَافُ عَلَيْكَ صَوْلَتَهُ، فَقَالَ: " لَيْسَ عَلَيَّ مِنْهُ بَأْسٌ" فَلَمَّا نَظَرَ الْجَمَلُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ

(١) كتاب الصناعتين الكتابة والشعر لأبي هلال العسكري ص ٢١٢ .

(٢) السانِيَةُ الناقةُ التي يُسْقَى عليها. المحكم والمحيط الأعظم (سنو).

أَقْبَلَ نَحْوَهُ، حَتَّى خَرَّ سَاجِدًا بَيْنَ يَدَيْهِ، فَأَخَذَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِنَاصِيَتِهِ أَذَلَّ مَا كَانَتْ قَطُّ، حَتَّى أَدْخَلَهُ فِي الْعَمَلِ، فَقَالَ لَهُ أَصْحَابُهُ: يَا نَبِيَّ اللهِ، هَذِهِ بَهِيمَةٌ لَا تَعْقِلُ تَسْجُدُ لَكَ وَنَحْنُ نَعْقِلُ، فَنَحْنُ أَحَقُّ أَنْ نَسْجُدَ لَكَ، فَقَالَ: " لَا يَصْلُحُ لِبَشَرٍ أَنْ يَسْجُدَ لِبَشَرٍ، وَلَوْ صَلَحَ لِبَشَرٍ أَنْ يَسْجُدَ لِبَشَرٍ، لَأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا، مِنْ عِظَمِ حَقِّهِ عَلَيْهَا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ كَانَ مِنْ قَدَمِهِ إِلَى مَفْرِقِ رَأْسِهِ قُرْحَةٌ تَنْبَجِسُ بِالْقَيْحِ وَالصَّدِيدِ، ثُمَّ اسْتَقْبَلَتْهُ تَلْحَسُهُ مَا أَدَّتْ حَقَّهُ ". (١)

رواية سيدنا جابر رضي الله عنه :

روى الإمام أحمد بسنده عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ أنه قَالَ: "أَقْبَلْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ سَفَرٍ، حَتَّى إِذَا دَفَعْنَا إِلَى حَائِطٍ مِنْ حِيطَانِ بَنِي النَّجَّارِ، إِذَا فِيهِ جَمَلٌ لَا يَدْخُلُ الْحَائِطَ أَحَدٌ إِلَّا شَدَّ عَلَيْهِ، قَالَ: فَذَكَرُوا ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَجَاءَ حَتَّى أَتَى الْحَائِطَ، فَدَعَا الْبَعِيرَ، فَجَاءَ وَاضِعًا مِشْفَرَهُ إِلَى الْأَرْضِ، حَتَّى بَرَكَ بَيْنَ يَدَيْهِ، قَالَ: فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: " هَاتُوا خِطَامَهُ " فَخَطَمَهُ، وَدَفَعَهُ إِلَى صَاحِبِهِ، قَالَ: ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَى النَّاسِ، قَالَ: " إِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، إِلَّا يَعْلَمُ أَنِّي رَسُولُ اللهِ، إِلَّا عَاصِيَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ "". (٢)

بالنظر إلى الحديثين يتبين أن رواية سيدنا أنس رضي الله عنه سلكت طريق التفصيل في عرض أحداث المعجزة، بينما سلكت رواية سيدنا جابر رضي الله عنه طريق الإيجاز، وأن الفرق بين تفصيل الأولى، وإجمال الثانية تمثل في ثلاثة محاور:

المحور الأول: التمهيد للمعجزة .

المحور الثاني: الحديث عن المعجزة .

المحور الثالث: أثر المعجزة .

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢٠/٦٤، ٦٥ حديث رقم (١٢٦١٤).

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل ٢٢/٢٣٥ حديث رقم (١٤٣٣٣) .

المحور الأول: التمهيد للمعجزة

في التمهيد للمعجزة نجد أن سيدنا أنسًا ﷺ يميل إلى الاستقصاء والتفصيل عن طريق الإكثار من الجمل التي تحكي قصة جمل الأنصار وهذا يتلاقى مع هذا السياق الإطنابي ويناغيه، على حين خلت رواية سيدنا جابر ﷺ من هذه الجمل فلم تذكر إلا جملتين فقط تبينان حال الركب الميمون قبل رؤية المعجزة .

بدأ سيدنا أنسﷺ هذه الجمل التمهيدية بقوله: (كَانَ أَهْلُ بَيْتٍ مِنَ الْأَنْصَارِ لَهُمْ جَمَلٌ يَسْنُونَ عَلَيْهِ) فعبر بـ (كان) التي تدل على المضي والانقضاء، وكأنه بذلك يريد أن يستعرض أحداث المعجزة من بدايتها، ولا يفوت جزءًا واحدًا منها، فلفظة "كان" توحي بمدٍّ كلامي عن طريق تتبع أحداث ما جرى، فلا تخلو من عنصر القصّ المقتضي متابعة دقيق الحدث وعظيمه، ومن ثمّ تراه لم يهجم على غرضه مباشرة بل ذكر أهمية هذا الجمل والتي تتمثل في أن الأنصار كانوا يستخدمونه في سقي النخل والزرع، جاء في لسان العرب: " السانية الناضحة وهي الناقة يسقى عليها ... وجمعها السواني ما يسقى عليه الزرع والحيوان من بعير وغيره "[١] فهذا الجمل يمثل القوة الاقتصادية لهم؛ إذ لولاه لهلك النخل والزرع.

والتنكير في (جمل) يفيد الإفراد؛ لأنه وصف بقوله: " يسنون عليه" وهذا يومئ إلى الأهمية البالغة لهذا الجمل؛ حيث إنهم لا يملكون سواه حسبما تشير إليه دلالة التنكير في (جمل)، وتنكيره لـ"بيت" يفتح مجالا لكلام آخر غايته التعرف على أفراد هذا البيت الأنصاري وموقعهم المكاني في المدينة، فلم يقطع سيدنا أنس ﷺ على المتلقي حوارا داخليا حول أهل البيت وأشخاصهم وموقعهم،

(١) ينظر لسان العرب (سنا) .

ففتح بذلك مجالا لأن تذهب النفس في معرفتهم كل مذهب بخلاف ما فعل سيدنا جابر ﷺ كما سيأتي.

وجاءت الجملة التمهيدية الثانية قوله: (وَإِنَّ الْجَمَلَ اسْتُصْعِبَ عَلَيْهِمْ، فَمَنَعَهُمْ ظَهْرَهُ) وفيها التعبير بالظاهر في موضع المضمر ففي التصريح بلفظ الجمل تأكيد لما يتعلق به من أحداث أعظمها أثرا سجوده بين يدي النبي ﷺ وتوضح هذه الجملة أن الجمل قد تغير حاله من انقياد إلى عصيان ومخالفة، مع عدم قدرتهم على التعامل معه، بما تفيده الألف والسين والتاء من شدة الإباء والجماح، وزاد من جرعة ذلك الإباء الاستعارة المكنية البارعة في قوله: (فَمَنَعَهُمْ ظَهْرَهُ) فشبه البعير بالإنسان الذي يملك الإرادة والقوة والدفع وحذفه ورمز له بشيء من لوازمه، وهذه الجملة –كذلك– تنطوي على قسم من أقسام الإطناب وهو الإيضاح بعد الإبهام فإن النفس إذا سمعت قوله: (وَإِنَّ الْجَمَلَ اسْتُصْعِبَ عَلَيْهِمْ) وما فيه من إجمال وإبهام تشوقت إلى معرفته على سبيل التفصيل والإيضاح، والغرض من ذلك تفخيم الأمر وتعظيمه، فغرض سيدنا أنس ﷺ من ذلك بيان صعوبة الأمر وشدته، وضرورة العثور على حل لهذا الجمل النافر.

وهذا ما كشفته الجملة الثالثة: (وَإِنَّ الْأَنْصَارَ جَاءُوا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالُوا: إِنَّهُ كَانَ لَنَا جَمَلٌ نَسْنَى عَلَيْهِ) ونجد هنا من عناصر الإطناب تكرار لفظ (الأنصار) وفائدته هنا ترجع إلى منزلتهم عند النبي ﷺ التي تستدعي تدخله ﷺ لإزالة همهم ولتفريج كربهم، ويساعد على هذا الفهم إسناد المجيء إلى ضمير الأنصار وفاعل المجيء بعضهم على طريق المجاز العقلي والغرض من ذلك تحقيق الاستجابة السريعة من النبي ﷺ وفائدة (إنّ) هنا مع تكرارها الدلالة على أن الظن الذي ظنوه في جملهم مردود فقد ظنوا أن يبقى مطيعًا منقادًا لهم على

الدوام قال الشيخ عبد القاهر . رحمه الله: " واعلم أنها قد تدخل . أي (إن) . للدلالة على أن الظن قد كان منك أيها المتكلم في الذي كان أنه لا يكون"[١] .

ونلاحظ أنه عبر بـ(جاءوا) دون أتوا مثلا؛ لأن المعبّر به هو الأنسب للمقام؛ فالإتيان يختلف عن المجيء "في كونه لا يكون عن دعوة، وإنما عن رغبة وطواعية، دون قهر أو إلزام، أما المجيء فإنه يكون مطلوبًا، أو متوقعًا منتظرًا بقرائن الأحوال والسياق"[٢] فالمجيء هنا متوقع منهم بدلالة السياق الذي يقطر شدة وكربا ويستدعى لما عرض من المشكلة حلًا؛ لذا عبروا عن حاجتهم الشديدة بقولهم: (وَقَدْ عَطِشَ الزَّرْعُ وَالنَّخْلُ) وهذا إطناب وتفصيل بذكر ما ترتب على جماح ذلك البعير؛ لذا نراهم عند شكايتهم للنبي ﷺ أعادوا الأحداث كلها حيث قالوا: (إِنَّهُ كَانَ لَنَا جَمَلٌ نَسْنَى عَلَيْهِ، وَإِنَّهُ اسْتُصْعِبَ عَلَيْنَا، وَمَنَعَنَا ظَهْرَهُ) وفائدة التكرار هنا التأكيد على شدة وصعوبة الجمل عليهم.

وسيدنا أنس ﷺ يريد أن يؤكد على عدم تمكن الناس من الجمل حتى ولو كانوا أصحابه، وهذا ما يفيده قوله: (كان لنا) وكأنهم لعدم تمكنهم من السيطرة علي جملهم قد خرج عن ملكيتهم، فلم يعُد مطيعا كما كان من قبل، وقد عطف الجمل السابقة بالواو؛ لأنها اشتركت في بيان الشدة المشار إليها، ومما سبق يتضح أن التفصيل آتٍ من تكاثر الجمل وتتابعها في وصف الأحداث، فأنت واجد جملا كثيرة متجاورة تحكي كل واحدة منها جانبا من الحدث له دلالته وقيمته في جانب المعجزة، فتتابع الجمل عند سيدنا أنسﷺ لم يكن هكذا جزافًا من دون غرض.

(١) دلائل الإعجاز ص ٣٢٧ .

(٢) الإتيان والمجيء فقه دلالتهما واستعمالهما في القرآن الكريم للدكتور محمود موسى حمدان ص ٧١ .

أما سيدنا جابر ﷺ فإنه يروي ما رآه بنفسه وشاهده بعينه فامتطى طريق الإيجاز واقتصر على الأحداث المهمة التي يتخلص منها بسرعة إلى الحديث عن المعجزة، وهذا واضح في مستهل الحديث فعبر بقوله: (أَقْبَلْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ سَفَرٍ، حَتَّى إِذَا دَفَعْنَا إِلَى حَائِطٍ مِنْ حِيطَانِ بَنِي النَّجَّارِ) نلاحظ هنا أنه ﷺ يأخذنا إلى الأحداث مباشرة دون تفصيل فيعبر بـ (أقبلنا) دون رجعنا، أو أتينا مثلًا حتى يقطع فرصة التفصيل فيما سبق، ويجعلك لا تفكر إلا فيما هو مقبل عليه "وَقبل على الشَّيْء، وَأَقْبَلْ: لزمَه وأخذ فِيهِ"(١).

فالإيجاز هنا جاء من كونه جعل أمر المعجزة المقصد الأهم ومحور الحديث؛ ذلك لأن المعجزة –كما هو ظاهر– حدثت فجأة عقب عودة الركب الميمون دون تأهب لها، والتعبير بالماضي يفيد تحقق حدوث الفعل وانتهائه سلفًا، واتصال ناء الفاعلين بالفعل إشارة إلى كثرة العدد مما يضفي على الخبر صفة الذيوع والانتشار، ثم إن الإقبال هنا لا يفيد أكثر من عرض ما حدث ساعة إقبال الركب وهذا لا يُشعر بطول الأحداث مقارنة بالتعبير بـ "كان" في بيان سيدنا أنس ﷺ ومن أمارات إيجازه هنا تنكيره لـ (سفر) وأفاد هذا التنكير أنه لا يريد أن يشغل ذهن السامع بأشياء تبعده عن التأمل في الغرض الأصلي، فلا يهم كونه أقبل من الشرق أو الغرب، بل المهم هو ما بصدد الحديث عنه دون سواه.

ومن إيجازه –أيضًا– إيثاره الفعل (دفعنا) فلم يعبر بوصلنا مثلًا؛ لما فيها من إيحاءات تتفق مع السياق، لأن الاندفاع "هو المضي في الأرض كائنًا ما كان(٢) "والدُّفعة هي انتهاء جماعة من القوم إلى موضع بمرة"(٣) و"الدُّفّاع الْكَثِيرُ

(١) المحكم والمحيط الأعظم (قبل).

(٢) تاج العروس من جواهر القاموس (دفع) .

(٣) المحكم والمحيط الأعظم (دفع) .

مِنَ النَّاسِ وَمِنَ السَّيْلِ" [١] فالتعبير بـ (دفعنا) يناسب هنا المقام المركز الجانح إلى الإيجاز؛ لما تحمله من معنى الوصول والانتهاء والشدة والكثرة والفجأة مما لا يكون في نظيراتها.

ونلاحظ أنه عدى الفعل (دفعنا) بـ (من) التي هي في أصل معناها "ابتداء الغاية في المكان اتفاقًا نحو: ﴿مِّنَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ إِلَى ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡأَقۡصَا﴾[٢] وكذا فيما نزل منزلة المكان، نحو: من فلان إلى فلان، وفي الزمان عند الكوفيين، كقوله تعالى: ﴿مِنۡ أَوَّلِ يَوۡمٍ﴾ [٣][٤] فعداه بـ (من) لأنها تستعمل للغاية، نحو: أخذت من الصندوق"[٥] وهو هنا يبدأ الكلام عن المعجزة فكأنه بذلك يجذب السامع إلى الانتباه لأهمية ما يلقى من الحديث.

ومن ملامح إيجازه كذلك ذكره لمكان المعجزة وأصحاب ذلك المكان (حَائِطٍ مِنْ حِيطَانِ بَنِي النَّجَّارِ) لأن ذكر المكان يعين على التركيز والإيجاز؛ نظرًا لاختمار الأحداث في ذهن المتكلم، إضافة إلى أن تحديد أهل الحائط لا يفتح مجالا للذهن لمحاولة السؤال عن أعيانهم فلا تذهب النفس في معرفتهم كل مذهب كما فعل ذلك سيدنا أنس ﷺ من قبل.

وقوله: (إِذَا فِيهِ جَمَلٌ لَا يَدْخُلُ الْحَائِطَ أَحَدٌ إِلَّا شَدَّ عَلَيْهِ) تلمح فيه الإيجاز عن طريق تنكيره لـ(جمل) وهذا التنكير يفيد التعظيم، وكأنه جمل يختلف عن جميع جنسه، فهو لشراسته قد ملأ الحائط وامتلكه بما تفيده كلمة (فيه) من أن البستان قد أصبح ظرفًا لذلك البعير الشارد، فهذا التنكير أغنى عن مزيد وصف

(١) لسان العرب (دفع).
(٢) سورة الإسراء من الآية (١) .
(٣) سورة التوبة من الآية (١٠٨) .
(٤) الجني الداني في حروف المعاني ص ٣٠٨ .
(٥) السابق ص ٣١٣ .

لهذا الجمل، والإيجاز في هذا التعبير مستفاد –أيضًا– من دلالة القصر في قوله: (لَا يَدْخُلُ الْحَائِطَ أَحَدٌ إِلَّا شَدَّ عَلَيْهِ) والذي يفيد بأقصر تعبير الاستغراق والعموم؛ فكل الحاضرين لا يستطيع واحد منهم اقتحام الحائط والولوج على الجمل المستصعب، والنفي والاستثناء يفيد الكلام تقوية وتوكيدًا والداعي إلى التوكيد هنا أهمية هذا الاستغراق وهذا العموم؛ حيث إنه يفيد شدة الجمل على الناس شدة مهدت لأن يكون ما حدث على يد المعصوم ﷺ معجزة باهرة تسحر العقول، وتبهر النفوس، فالقصر طريق من طرق الإيجاز؛ لأنه في قوة جملتين، والإيجاز من أهم أغراضه، وقد يقصد به تمكين الكلام وتقريره في الذهن[1] كما أن التعبير بـ(إذا) الظرفية في التمهيد للمعجزة مرتين في قوله: (إذا دفعنا، إذا فيه جمل) يضع وقتا صارما للأحداث الواقعة فيه ومع الظرفية تشعر بالمفاجأة التي اعتيد على قِصَر أمدها واكتنازه.

(١) ينظر بغية الإيضاح لعبد المتعال الصعيدي ٢٢١/٢ .

المحور الثاني: الحديث عن المعجزة

في الحديث عن المعجزة وأحداثها برز إطناب سيدنا أنس، وإيجاز سيدنا جابر – رضي الله عنهما – واضحًا مع دقة في ترتيب الأحداث عن طريق حروف العطف دقة تأخذ بالألباب وتستدعي التأمل .

بدأ سيدنا أنس ﷺ الحديث عن المعجزة بقوله: (فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ: " قُومُوا " فَقَامُوا، فَدَخَلَ الْحَائِطَ وَالْجَمَلُ فِي نَاحِيَتِهِ، فَمَشَى النَّبِيُّ ﷺ نَحْوَهُ) وأول ما يلاحظ في هذه الجمل أنه ﷺ يحرص على تصوير كل عناصر المعجزة وأحداثها، ولو كانت دقيقة، وفي أمر النبي ﷺ (قوموا) خرج الأمر من معناه الحقيقي إلى معنى مجازي هو الحث والترغيب في رؤية الخبر ومعاينة المعجزة التي سوف تظهر على يديه ﷺ.

وعند هذا المقطع تغير مجرى التعبير تبعًا لتغير مجرى الأحداث، فعطفت الجمل بالفاء التي تفيد الترتيب والتعقيب مع السرعة في قوله: (فَقَامُوا، فَدَخَلَ الْحَائِطَ وَالْجَمَلُ فِي نَاحِيَتِهِ، فَمَشَى النَّبِيُّ ﷺ نَحْوَهُ فَقَالَتِ الْأَنْصَارُ) لأن المقام يقتضي هذه السرعة في الأحداث دون الأسلوب الهادئ المتريث فأمر النبي ﷺ للصحابة بالقيام يقتضي سرعة التنفيذ والامتثال، وهذه السرعة في دخوله ﷺ الحائط ومشيه إلى البعير دون توان، أو خوف مناسب لمقام الإعجاز .

ومع هذه السرعة في الأحداث نجده يعبر بـ (مشى) دون أسرع أو سعى مثلاً؛ لأن المشي هو المناسب للسياق؛ لأنه يشير إلى أن مشي النبي ﷺ كان مشيًا هادئًا لينًا؛ لوثوقه من قدرته على كبح جماح الجمل الشارد، والمشي هو "الانتقال من مكان إلى مكان بإرادة قال تعالى:﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْاْ

فِيهِ﴾"[1][2] بخلاف السعي؛ لأن معناه "المشي السريع وهو دون العدو"[3] فلا يناسب المقام .

والتعبير بالجملة الحالية: (وَالْجَمَلُ فِي نَاحِيَتِهِ) أفاد أن الجمل كان بعيدًا، ولم ير النبي ﷺ وهذا بخلاف رواية سيدنا جابر ﷺ فهناك كان الجمل بداخل الحائط ومتمكنًا من رؤية النبي ﷺ فبمجرد وصوله دعاه فلبى النداء .

وفي قول الأنصار: (يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّهُ قَدْ صَارَ مِثْلَ الْكَلْبِ الْكَلِبِ) لطيفتان: الأولى نداؤهم للنبي ﷺ بـ (يَا رَسُولَ اللهِ) دون (يا نبي الله) وكأن الصحابة هتفوا من أعماق قلوبهم للنبي ﷺ أن يحذر هذا الجمل النافر، أو أنهم تيقنوا أن ما سيصنعه النبي ﷺ من جنس المعجزة ، واللطيفة الأخرى هي الكناية عن ضراوة الجمل بقوله: (إِنَّهُ قَدْ صَارَ مِثْلَ الْكَلْبِ الْكَلِبِ) وأكد ذلك بإن وقد، والفعل الماضي الذي يفيد تحول الجَمل عن طبيعته ثم التشبيه المزين بالجناس . المحرَّف . الذي زاد الجملة تأكيداً وبهاءً وغرض سيدنا أنس ﷺ من هذا التصوير هو بيان خوف الصحابة الشديد على النبي ﷺ .

وموضع الإطناب هنا أنه عبر بثلاث جمل كان يمكنه الاكتفاء بواحدة منها ، وهي قوله: (يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّهُ قَدْ صَارَ مِثْلَ الْكَلْبِ الْكَلِبِ، وَإِنَّا نَخَافُ عَلَيْكَ صَوْلَتَهُ) فهذا إطناب مع أن المقام هنا يقتضي الإيجاز والتركيز نظرًا لشدة الجمل والخوف منه، ولكنه آثر الإطناب ليبين خوف الصحابة على النبي ﷺ؛ لذا كان رد النبي ﷺ في غاية الروعة والجمال؛ حيث قال: (لَيْسَ عَلَيَّ مِنْهُ بَأْسٌ) فقدم الجار والمجرور (عَلَيَّ) اهتمامًا بشأنه ﷺ وإشارة إلى أنه لن يصاب بأذى، أما غيره فليس بمعزل عن ذلك .

---

(١) سورة البقرة من الآية (٢٠) .

(٢) المفردات في غريب القرآن ص ٤٧١ .

(٣) المرجع السابق ص ٢٣٨ .

وفي تعبير سيدنا جابر ﷺ عن المعجزة تلحظ –أيضًا– الإيجاز والتركيز الشديد على الغرض وهو إثبات هذه المعجزة الباهرة للنبي ﷺ فقال: (فَذَكَرُوا ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَجَاءَ حَتَّى أَتَى الْحَائِطَ، فَدَعَا الْبَعِيرَ، فَجَاءَ وَاضِعًا مِشْفَرَهُ إِلَى الْأَرْضِ) فاختصر الأحداث السابقة باستخدام اسم الإشارة (ذلك) الذي يشار به للبعيد، فقد مكنه من التركيز والإيجاز وتفادي التكرار الذي يترهل به الأسلوب ويتثاقل به وثوبه إلى القلوب، وللفاء هنا دور بارز في الإيجاز والتركيز، "فهي تجعل أول ما دخلت عليها موصولاً بآخر ما عطفت عليه، وكأنها عروة يمسك بها الحدث بالحدث والفعل بالفعل، والقول بالقول، والحركة بالحركة، وتُنتج لك من كل هذه الأحداث والأقوال والأفعال والانفعالات صورة واحدة وفعلًا واحدًا قد كونته كل هذه المكونات"(١)، ولم تخْلُ منها جملة واحدة جريا على نهج السرعة والإيجاز الذي امتطاه سيدنا جابر ﷺ، وعند سيدنا أنس ﷺ عشر جمل في بيان أحداث المعجزة في تسارعها واتصالها ومع ذلك أفرغ أربعا منها من الفاء ما يظهر بوضوح ترتيبه للأحداث لا يبلغ في سرعته وإيجازه ما ورد عند صاحبه.

وجملة (فَدَعَا الْبَعِيرَ) بداية الإعجاز؛ لأن الجمل المستصعب على القوم لا يملك إلا الطاعة للنبي ﷺ لذا رتب على هذه الدعوة التلبية السريعة من الجمل فما إن دعاه حتى أسرع مقبلًا إليه (وَاضِعًا مِشْفَرَهُ إِلَى الْأَرْضِ) وهذا التعبير كناية عن كمال الخضوع والانقياد للنبي ﷺ وسر هذا التعبير الكنائي أن رأس البعير عامة ومشفره خاصة تظهر عليهما علامات الإباء والجماح، فنص على أنهما كانا موضع الصغار والانقياد؛ لكي تتحقق المعجزة على أكمل وجوهها، وفي التعبير نكتة أخرى هي تعبيره بحرف الجر (إلى) والمقام يقتضي على دون إلى؛ لأن على وما تفيده من معنى الاستعلاء لا تناسب موقف هذا الجمل الخاضع

(١) شرح أحاديث من صحيح البخاري دراسة في سمت الكلام الأول ص ٧٩ .

لرؤية النبي ﷺ فاستعمل إلى الغائية؛ ليشير إلى أن الجمل وضع مشفره على الأرض برفق يتلاءم مع هذا الموقف الذي تملؤه الخشية والرهبة من رسول اللهﷺ.

وقوله: (حَتَّى بَرَكَ بَيْنَ يَدَيْهِ) يفيد نهاية الاستسلام والانقياد، فالجمل لم يُنِخْه النبي ﷺ بل هوى إلى الأرض بمجرد دعوة النبي ﷺ له، وهذا من كمال المعجزة، فالجمل الذي كان يشتد على من يدخل الحائط هو بعينه الذي يخر بين يدي النبي ﷺ طاعة وانقيادًا .

ونلاحظ في قوله ﷺ يحكي ما قاله النبي ﷺ لأصحابه: (هَاتُوا خِطَامَهُ " فَخَطَمَهُ، وَدَفَعَهُ إِلَى صَاحِبِهِ، قَالَ: ثُمَّ الْتَفَتَ إِلَى النَّاسِ) تنوع العاطف تبعًا لتنوع الأحداث وهذا يومئ إلى القدرة التعبيرية السامقة بالرغم من أن المقام مقام إيجاز، فعطف في الجملة الأولى (فخطمه) بالفاء؛ لأن الخطم ترتب على الإتيان بالخطام على وجه السرعة وفيه إشارة إلى تكمن النبي ﷺ من الجمل وأنه استسلم لما يفعله به رسول اللهﷺ، وعطف في قوله: (ودفعه إلى صاحبه) بالواو؛ لأنه ليس فيه إلا الجمع فقط بينه وبين سابقه، دون إرادة معنى آخر فليس " للواو " معنى سوى الاشتراك في الحكم الإعرابي، وعطف بـ (ثم) في قوله: (ثم التفت)؛ لأنه تخلل زمن بين دفعه ﷺ الجمل إلى صاحبه، وبين التفاته إلى الناس .

أما تصوير سيدنا أنس ﷺ للحظة الإعجاز فقد جاء . مع إطنابه . أعلى بيانًا من تعبير سيدنا جابر ﷺ حيث قال: (فَلَمَّا نَظَرَ الْجَمَلُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ أَقْبَلَ نَحْوَهُ) وبالنظرة العجلى تدرك أن أسلوب التعبير عن المعجزة هنا قد ارتقى عن سابقه وأصبح أدخل في التعبير عن خوارق العادات، وعما يعده الناس من قبيل المستحيلات؛ فإقبال الجمل هنا لم يكن داعيه والباعث عليه دعوة النبي ﷺ كما في الرواية الأخرى لسيدنا جابر ﷺ، إنما كان بالنظر إلى أفضل البشر ﷺ فأقبل تغشاه المهابة والجلالة "حتى خر ساجدًا بين يديه".

ونلاحظ أن التعبير عن كمال المعجزة تصاعد –أيضًا– عن ذي قبل، فأين خَرَّ هنا من برك هناك؟؛ فالخرُّ يعبر به عن الشيء إذا هوى من علو إلى سفل،

وكل واقع كذلك فقد خرّ[١] "والخرير يقال لصوت الماء والريح وغير ذلك مما يسقط من علو"[٢]، فهذا التعبير البارع في الجمال يصور بدقة حالة هذا الجمل الذي لم يتمالك نفسه إثر رؤية المصطفي ﷺ مع ما فيه من فجأة وبغتة، ولطيفة أخرى في استعمال "خرَّ " هنا أن فيها تنبيهًا على اجتماع أمرين : السقوط وحصول الصوت [٣]، وهذا يفيد أن الجمل عند خروره كان يرسل صوتًا من الخشية والخوف وهذا ما يتناسب مع سياق المعجزة.

وعلى حين تعلو نبرة الحديث عن المعجزة عند سيدنا أنس ﷺ وكيفية تعامله ﷺ مع الجمل النادّ لتصل إلى ذروة الذروة ونهاية التصوير عند قوله:" فأخذ النبي ﷺ بناصيته أذل ما كانت قط حتى أدخله في العمل" تقل حدتها مقارنة برواية سيدنا جابر ﷺ (هاتوا خطامًا)؛ فالأمر لا يستدعي خطامًا أو زمامًا؛ فهو لا يعدو أن يأخذ النبي ﷺ بناصية الجمل الشارد الذي تهيبه كل أحد، ثم أن كان الأخذ بالناصية دون غيرها من أعضائه، ودون خطام أو زمام، وفي إيثاره لأفعل التفضيل (أذل) وما تفيده من أن الجمل قد وصل إلى نهاية الذُّل والخضوع، وأصبح لينًا سلس القِياد، وأكد ذلك بقوله (قط) وهو للأبد الماضي وقوله: "حتى أدخله العمل" ويفيد هذا التعبير أن النبي ﷺ أرجع البعير إلى حالته الأولى قبل جماحه، وهذا أدخل في الإعجاز من رواية سيدنا جابر ﷺ؛ ففيها أنه ﷺ دفعه إلى صاحبه دون إشارة إلى عودته إلى العمل وهذا هو المناسب لمقام الإعجاز .

(١) جمهرة اللغة (خرر).

(٢) مختار الصحاح (خرر) .

(٣) المفردات في غريب القرآن ص ١٥٠ ، ١٥١.

المحور الثالث: أثر المعجزة

جاء أثر المعجزة على الصحابة عند سيدنا أنس ﷺ قويًا مطنبًا؛ حيث ذكر تعليق الصحابة على المعجزة وتعليق النبي ﷺ على تعليقهم وكان بإمكانه أن يقف بالرواية عند حد بيان المعجزة التي انجلت بها المعضلة، لكنه استرسل فذكر ما ترتب على المعجزة كاملًا مفصلًا حيث قال: " فَقَالَ لَهُ أَصْحَابُهُ: يَا نَبِيَّ اللهِ، هَذِهِ بَهِيمَةٌ لَا تَعْقِلُ تَسْجُدُ لَكَ وَنَحْنُ نَعْقِلُ، فَنَحْنُ أَحَقُّ أَنْ نَسْجُدَ لَكَ، فَقَالَ: " لَا يَصْلُحُ لِبَشَرٍ أَنْ يَسْجُدَ لِبَشَرٍ، وَلَوْ صَلَحَ لِبَشَرٍ أَنْ يَسْجُدَ لِبَشَرٍ، لَأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا، مِنْ عِظَمِ حَقِّهِ عَلَيْهَا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ كَانَ مِنْ قَدَمِهِ إِلَى مَفْرِقِ رَأْسِهِ قُرْحَةٌ تَنْبَجِسُ بِالْقَيْحِ وَالصَّدِيدِ، ثُمَّ اسْتَقْبَلَتْهُ تَلْحَسُهُ مَا أَدَّتْ حَقَّهُ " .

فنجد هنا أن أثر المعجزة كان عظيمًا على نفوس الصحابة؛ فهذه المعجزة التي رأتها أعينهم، واستيقنتها أنفسهم، زلزلت كيانهم وأدهشت جنانهم، وخرقت قراطيس أسماعهم؛ فنادوا المعصوم ﷺ بقولهم: (يا رسول الله) بدلًا من يا نبي الله، وفي إيثار لفظ الرسالة هنا وفي ختام رواية سيدنا جابر ﷺ لمناسبته لمقام الإعجاز؛ لأن الرسول"من جمع له بين المعجزة وإنزال الكتاب عليه، والنبي فقط من لم ينزل عليه كتاب، وإنما أمر أن يدعو أمته إلى شريعة من قبله"[1] وفي قول الصحابة . رضوان الله عليهم: (هَذِهِ بَهِيمَةٌ لَا تَعْقِلُ لَا تَعْقِلُ تَسْجُدُ لَكَ...) نجد أنهم من شدة تأثير المعجزة عليهم همّوا أن يرتكبوا أمرًا شركيًا، وأن يسجدوا لصاحب المعجزة ﷺ لولا نهيه ﷺ لهم؛ لأن السجود لا يكون إلا لله تعالى.

ومن مظاهر تفصيل سيدنا أنس ﷺ هنا إيراده لقول النبي ﷺ: (لَا يَصْلُحُ لِبَشَرٍ أَنْ يَسْجُدَ لِبَشَرٍ) وهذه الجملة التي ترتبت على أثر المعجزة على الصحابة لا ترى بينها وبين ما قبلها صلة عند بديهة النظر إلا أن هناك رباطًا معنويًا

(١) أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل لمحمد بن أبي بكر الرازي ص٣٤٨.

وخيطًا دقيقًا يربطها بما قبلها يتمثل في كمال الطاعة والخضوع، وهذا يومئ إلى أهمية طاعة المرأة لزوجها؛ لأن النبي ﷺ حث عليه في مقام الإعجاز .

بينما جاء أثر المعجزة عند سيدنا جابر ﷺ بالتأكيد من النبي ﷺ بعلم جميع الموجودات بكونه رسول الله (إِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، إِلَّا يَعْلَمُ أَنِّي رَسُولُ اللهِ، إِلَّا عَاصِيَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ) ونلاحظ أنه سلك طريق القصر الذي يعين على الإيجاز والتركيز، ولكن لم ختمت رواية سيدنا جابر ﷺ بالإشادة برسالته ﷺ ؟ والجواب لكون السياق هنا يومئ إلى أن المعجزة حدثت بغتةً دون توطئة لها، ودون استعداد من النبي ﷺ فهذا استدعى التأكيد على كونه ﷺ رسولًا مؤيدًا بالمعجزات، والنبي ﷺ هو من صرح بهذا اللفظ بخلاف رواية سيدنا أنس ﷺ فكان الصحابة المصرحين بها وبنوا عليها تعليقهم على المعجزة؛ ولذا طال الكلام ثَمّ وقصُر هنا؛ لأن سيدنا جابر ﷺ لم يتطرق لكلام الصحابة الذين شهدوا المعجزة وهذا من مظاهر إيجازه، كما أنه لم يسُق إلا جملة واحدة تحمل تعليق النبي ﷺ على المعجزة وقد بناها على القصر المفيد للإيجاز والتوكيد، ولا ريب أن هذه المعجزة قد أحدثت أثرا في نفوس الصحابة الكرام دفعهم إلى التعبير عما أحسوه ساعتئذ، لكنه لم يدخل تحت عناية سيدنا جابر ﷺ بعد أن امتطى الإيجاز في سرد أحداث المعجزة.

وعند تأمل قول النبي ﷺ في رواية سيدنا أنس ﷺ: (لو كنت آمرًا أحدًا) في مقابل قوله ﷺ في رواية سيدنا جابر: (إِلَّا عَاصِيَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ) نجد أن الأول أطول وأخص بينما الثاني أخصر وأعم، الأول مبني على الافتراض؛ ففيه فكرة وتخييل واعتبار ما لم يكن، والثاني حقيقة لا مراء فيها ودعوى لا تقبل النقد أو النقض، ومن هذا يتضح أن طريقة البيان عند الصحابيين الجليلين لم تتأثر بنقل عبارات رسول الله ﷺ بعد أن تبين أن كلًا منهما آثر أن يستحضر من بيان النبي ﷺ ما يتناغم مع بيانه إيجازا أو إطنابا.

المطلب الثاني: إطناب سيدنا جابر وإيجاز سيدنا أنس رضي الله عنهما

اختلف بيان الصحابيين الجليلين عند الحديث عن معجزة نبع الماء من بين أصابع رسول الله ﷺ نظرًا لتعدد حدوثها في السفر كما في رواية سيدنا جابر ﷺ، أو في الحضر كما في رواية سيدنا أنس ﷺ، وكلاهما شهد المعجزة وانفعل بها، ولكن جنح سيدنا أنس ﷺ إلى الإيجاز والتركيز بينما فصل سيدنا جابر ﷺ تفصيلاً يتناغى مع السياق وحالته الانفعالية إزاء هذه المعجزة، وقد انتظم بيانهما عنها ثلاثة محاور أساسية:

المحور الأول: التمهيد للمعجزة .

المحور الثاني: الحديث عن المعجزة .

المحور الثالث: أثر المعجزة .

حديث سيدنا أنس ﷺ :

روى البخاري ومسلم بسندهما عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّهُ قَالَ: "رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَحَانَتْ صَلَاةُ العَصْرِ، فَالْتَمَسَ النَّاسُ الوَضُوءَ فَلَمْ يَجِدُوهُ، فَأُتِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِوَضُوءٍ، فَوَضَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي ذَلِكَ الإِنَاءِ يَدَهُ، وَأَمَرَ النَّاسَ أَنْ يَتَوَضَّئُوا مِنْهُ قَالَ: «فَرَأَيْتُ المَاءَ يَنْبُعُ مِنْ تَحْتِ أَصَابِعِهِ حَتَّى تَوَضَّئُوا مِنْ عِنْدِ آخِرِهِمْ» (١)

حديث سيدنا جابر ﷺ :

روى الإمام أحمد بسنده عن جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ أنه قَالَ: "غَزَوْنَا – أَوْ سَافَرْنَا – مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَنَحْنُ يَوْمَئِذٍ بِضْعَةَ عَشَرَ وَمِائَتَانِ، فَحَضَرَتِ

(١) صحيح البخاري ١/ ٤٥ «كتاب الوضوء، بَابُ التِمَاسِ الوَضُوءِ إِذَا حَانَتِ الصَّلَاةُ» حديث رقم (١٦٩) ، صحيح مسلم ٤/ ١٧٨٣ «كتاب الفضائل، بَابٌ فِي مُعْجِزَاتِ النَّبِيِّ ﷺ» حديث رقم (٢٢٧٩).

الصَّلَاةُ، فَقَالَ: رَسُولُ اللهِ ﷺ: " هَلْ فِي الْقَوْمِ مِنْ مَاءٍ؟ " فَجَاءَ رَجُلٌ يَسْعَى بِإِدَاوَةٍ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ مَاءٍ، قَالَ: فَصَبَّهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَسَلَّمَ فِي قَدَحٍ، قَالَ: فَتَوَضَّأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ، ثُمَّ انْصَرَفَ، وَتَرَكَ الْقَدَحَ، فَرَكِبَ النَّاسُ الْقَدَحَ تَمْسَحُوا، وَتَمْسَحُوا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "عَلَى رِسْلِكُمْ " حِينَ سَمِعَهُمْ يَقُولُونَ ذَلِكَ، قَالَ: فَوَضَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ كَفَّهُ فِي الْمَاءِ وَالْقَدَحِ، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: بِسْمِ اللهِ "، ثُمَّ قَالَ: " أَسْبِغُوا الْوُضُوءَ "، فَوَالَّذِي هُوَ ابْتَلَانِي بِبَصَرِي لَقَدْ رَأَيْتُ الْعُيُونَ، عُيُونَ الْمَاءِ، يَوْمَئِذٍ تَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فما رفعها حَتَّى تَوَضَّئُوا أَجْمَعُونَ» [١]

المحور الأول: التمهيد للمعجزة

نلاحظ في افتتاح كلام سيدنا أنس ﷺ عن هذه المعجزة أنه افتتحها بقوله: (رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ) والتعبير بالماضي يفيد تحقق الحدث فلا مجال لرده واستبعاده وهذا التعبير يفيد أنه ﷺ هجم على الغرض المراد فلم يذكر تفاصيل تشغل ذهن المستمع؛ فبهذا التعبير يهيئ النفوس إلى الأمر العظيم الذي يؤمه ويسرد أحداثه .

بينما كانت أول جملة عند سيدنا جابر ﷺ قوله: (غَزَوْنَا أَوْ سَافَرْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ) وهذا التعبير منه ﷺ تشعر منه أنه سوف يحكي ويقص ويشرح فلم يهجم على الغرض بل ذكر الغزو أو السفر وهو بمثابة السبب في وقوع المعجزة ، وهذا التعبير . أي بالسبب . أمر يحرص عليه سيدنا جابر ﷺ في بداية حديثه عن هذه المعجزة فعند البخاري افتتح كلامه بقوله: "عَطِشَ النَّاسُ يَوْمَ الحُدَيْبِيَةِ"[٢]، وفي مسند الإمام أحمد (اشتكى أصحاب رسول الله ﷺ إليه

(١) مسند الأمام أحمد ط الرسالة : ١٣/٢٢، ١٤ حديث رقم (١٤١١٥).

(٢) صحيح البخاري ٤/ ١٩٣ "كتاب المناقب، بَابُ عَلَامَاتِ النُّبُوَّةِ فِي الإِسْلَامِ" حديث رقم (٣٥٧٦).

العطش)[1] فالسياق دائمًا عند سيدنا جابر ﷺ ينبض بالشدة والمعاناة، ونلاحظ أن التعبير بإسناد الفعل إلى ضمير المتكلمين يغلب على سيدنا جابر ﷺ خاصة في مثل هذه الأمور العظيمة التي تتطلب الاحتشاد والتوكيد[2]، فالتعبير بذلك يناسب المقام؛ منعًا لورود ذلك الشك من ناحية، ومن ناحية أخرى؛ لأنه سوف يذكر عدد الصحابة وهذا يقتضي الجمع ؛ بينما أفرد سيدنا أنس ﷺ الفعل؛ لأنه يحكي حادثة عاينها بنفسه، وأراد أن تصل للسامع قوية مؤكدة؛ فنظرًا لطول خدمته للنبي ﷺ فقد خدمه عشر سنين ودعا له النبي ﷺ فهو دائمًا قريب منه فكأنه بذلك المرجع في أحوال النبي ﷺ؛ لذا نراه يعبر بإسناد الفعل إلى ضمير المتكلم كثيرًا عندما يتحدث عن النبي ﷺ.

ثم ثنّى سيدنا جابر ﷺ بقوله: (وَنَحْنُ يَوْمَئِذٍ بِضْعَةَ عَشَرَ وَمِائَتَانِ) فذكر عدد الصحابة الحضور، وهذا إطناب لم يتعرض له سيدنا أنس ﷺ فلم يذكر العدد، وهذا على عادته في توفير الكلام على الغرض المسوق له، فلا يركز إلا على الأحداث الرئيسة التي لها دخل في المعجزة، وكأن القضية عنده هي إثبات هذه المعجزة الباهرة للنبي ﷺ فهذا ما يشغله؛ لذا جاءت الجملة الثانية عنده لتوثيق هذه المعجزة بذكر زمانها (وَحَانَتْ صَلَاةُ العَصْرِ) وذكر الزمن أمر يحرص عليه في مقام الإعجاز؛ لأن لذكر الزمن دلالات منها التأكيد على حضوره ﷺ لهذه المعجزة بحيث لم يلتبس عليه وقتها، ومنها زيادة اطمئنان النفس لما يقول ، ومنها أن كل تفاصيل الحادثة تتداعى في النفس والخيال عند ذكر مكانها، أو زمانها؛ لذا نرى أن ذكره للزمن مكنه من سرد الأحداث بطريقة منظمة حسب وقوعها دون زيادة أو نقصان، أو تقديم، أو تأخير، وقد اقترنت

(١) مسند الإمام أحمد : ٤٨/٢٣ .

(٢) مثل تعبيره في معجزة سجود البعير: (أَقْبَلْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ سَفَرٍ، حَتَّى إِذَا دَفَعْنَا).

جملة الحال بالواو لتدل "على المقارنة الزمانية"[١] وتلحظ في هذا التعبير أن الأحداث تجري في نطاقها الطبعي، يقال: "حَانَ كَذَا يَحِينُ قَرُبَ وَحَانَتْ الصَّلَاةُ حَيْنًا بِالْفَتْحِ وَالْكَسْرِ وَحَيْنُونَةً دَخَلَ وَقْتُهَا وَالْحِينُ الزَّمَانُ قَلَّ أَوْ كَثُرَ"[٢]، وهذا يفيد أن الصلاة قد دخل وقتها المعروف للصحابة فلم تفجأهم وتهجم عليهم، فالسياق يومئ إلى أن هذه الحادثة كانت حضرًا، ويدل على ذلك ما جاء في مسند الإمام أحمد ﷺ أن سيدنا أنسًا ﷺ قال: "نُودِيَ بِالصَّلَاةِ، فَقَامَ كُلُّ قَرِيبِ الدَّارِ مِنَ الْمَسْجِدِ، وَبَقِيَ مَنْ كَانَ أَهْلُهُ نَائِيَ الدَّارِ"[٣] بينما عبر سيدنا جابر ﷺ بقوله: (فَحَضَرَتِ الصَّلَاةُ) فعطفها على الجملة السابقة . غزونا أو سافرنا . بالفاء التي تفيد الترتيب والتعقيب ، ولهذا العطف مغزى هو الإشارة إلى المشكلة التي اعترضت الجمع الكريم آنذاك؛ فهم في سفر أو غزوة ، ووجود الماء حينئذ من الندرة بمكان، وإلا فليس لترتيب دخول وقت الصلاة على السفر أو الغزو معنى يقصد ، فهي لا تسقط عن المسلم في السفر، ولا في الحضر .

وقد ألمح شيخنا أبو موسى . حفظه الله ورعاه . إلى لطيفة في هذا العطف بقوله: "وكأن هذه الفاء تفيد أن الانطلاق شغلهم فحضرتهم الصلاة، ولم يفكروا في الماء الذي يتوضئون به، وأنهم لم ينتبهوا إلا وقد حضرتهم الصلاة، وكلمة حضرت الصلاة أجد لها مذاقا لا أجده في حان وقتها أو دخل وقتها؛ لأن كلمة حضرت فيها إشارة إلى حضور إلف عزيز، يُقبل إقبالاً فيه استرواح وتودد وتألف ومحبة، وكأنها حضرت وفي معيتها ما ألفته قلوب أهل الإيمان من الخشوع

(١) الإشارات والتنبيهات ص ١٢٢.

(٢) المصباح المنير (حين).

(٣) مسند الإمام أحمد ١٩ /٩٠ حديث رقم(١٢٠٣٢).

والوجل والذكر والتسبيح ، وخلع النفس من وعثاء ما هي فيه وإسلامها الوجه لله رب العالمين". (١)

وأرى في هذا العطف مغزى آخر هو الإشارة من طرف خفي إلى مكانة الصلاة في الإسلام وأنها لعظمتها جديرة بأن تخرق لها العادات ويجري الله على يد النبي ﷺ من أجلها المعجزات .

ونلاحظ أن سيدنا جابرًا ﷺ جسد الصلاة عن طريق هذه الاستعارة، فقد شبهها بإنسان عزيز يحضر على سبيل الاستعارة المكنية، وكأن الصلاة – رغم حبهم لها – قد حضرت في وقت لم يتهيئوا له، فهو حضور مفاجئ مباغت ويومئ هذا إلى أنه يريد أن يشرح ويفصل في شأن هذا القادم، والذي بنى عليه ما جاء من أحداث، فهو يريد أن تعيش معه تلك الحالة، وتفكر في أمر الصحابة . رضوان الله عليهم . وقد أدركتهم الصلاة وهم في تلك الحيرة والترقب والتساؤل ؛ لذا عطف على الجملة السابقة قوله: (فَقَالَ: رَسُولُ اللهِ ﷺ: " هَلْ فِي الْقَوْمِ مِنْ مَاءٍ؟) والعطف بالفاء أفاد سرعة قول الرسول ﷺ وسؤاله عن الماء اللازم للوضوء، وفي هذا حرص شديد على الصلاة، تجعل عدم وجود الماء أمرًا في غاية الحزن والألم عند رسول الله ﷺ وعند صحابته الأخيار.

ثم إن هذا السؤال النبوي المقصود منه تقرير الأمر وهو ندرة وجود الماء فيه ذلك اللون البديعي (تجاهل العارف) فقد سأل النبي ﷺ عما يعلم ليقرر ندرة الماء وهذا مستفاد من تعبيره بـ (في) التي تفيد الظرفية وهي الأصل في ذلك الحرف بدلاً من (مع) فجاءت في لمعنى المصاحبة، وهذا يشير إلى ندرة الماء وصعوبة الحصول عليه وأن الوصول إليه أمر بعيد المنال يكاد يدخل في دائرة المحال ، لذا آثر التعبير بـ (في) وزاد الأمر بعدًا استخدامه (من) الزائدة وتنكيره

(١) شرح أحاديث من صحيح البخاري ص ١٦٢ .

لكلمة (ماء) وكان يمكنه الاستغناء عن من الزائدة، ولكن التعبير بها أفاد العموم فالنبي ﷺ أراد أي شيء من الماء، ولو كان قليلاً، فمن "زائدة لتفيد التنصيص على العموم وتسمى الزائدة لاستغراق الجنس، وهي الداخلة على نكرة لا تختص بالنفي نحو: ما في الدار من رجل فهذه تفيد التنصيص على العموم"[١] فسيدنا جابر ﷺ بهذا التعبير يؤكد على صعوبة الحصول على الماء وهذا ما يجعل أثر المعجزة . فيما بعد . عميقًا في النفوس .

بينما جاءت الجملة التمهيدية الثالثة عند سيدنا أنس ﷺ خالية من الإيماء إلى تلك الصعوبة وتلك المعاناة، وهي قوله: (فَالْتَمَسَ النَّاسُ الوَضُوءَ فَلَمْ يَجِدُوهُ) فلم يجعل أمر الماء بعيد المنال كما فعل سيدنا جابر ﷺ بل جعله قريب التناول فالالتماس معناه الطلب، وهو "طلب باللمس، ثم سمي كل طلب التماسًا مجازًا . [٢]

فلم تكن هناك صعوبة في الوصول إلى الماء فلم يذكر سيدنا أنس ﷺ أنهم كانوا في سفر أو غزوة مما يكون مظنة لندرته، فالذي يبدو أن هذه الوقعة كانت في الحضر، ويدل على ذلك ما رواه سيدنا أنس ﷺ كما جاء في مسند الإمام أحمد عن النبي ﷺ أنه قال: "نُودِيَ بِالصَّلَاةِ، فَقَامَ كُلُّ قَرِيبِ الدَّارِ مِنَ الْمَسْجِدِ، وَبَقِيَ مَنْ كَانَ أَهْلُهُ نَائِيَ الدَّارِ "[٣]، ولأن العلماء اختلفوا في" كَيْفِيَّةِ نَبْعِ الْمَاءِ فِي عَلَامَاتِ النُّبُوَّةِ وَأَنَّ نَبْعَ الْمَاءِ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهِ وَقَعَ مِرَارًا فِي الْحَضَرِ وَفِي السَّفَرِ [٤] .

(١) الجنى الداني ص ٣١٦ .
(٢) الفروق اللغوية : ص ٣٠٨.
(٣) مسند الإمام أحمد : ٩٠/١٩ حديث رقم (١٢٠٣٢).
(٤) فتح الباري لابن حجر ٤٤٢/٧.

فهنا لا طماعية في الحصول على الماء لأن سياق سيدنا جابر ﷺ في السفر، أو الغزو فجاء تركيبه يفيض بأنماط من ملامح الإحساس التي كانت صدى لهذا السياق، "وكأن السياق هو الذي ينطق الكلمات، ويصرف لسانها، وللسياق شأن أي شأن في توجيه معاني البيان". (١)

فعلى حين نجد أن سيدنا جابر ﷺ يقطع بعدم إمكانية الحصول على الماء يشعرنا سيدنا أنس ﷺ بإمكانية ذلك، ولهذا دلالته على القائل، والمستمع تجاه التأثر بالمعجزة .

المحور الثاني: الحديث عن المعجزة

في وصف أحداث لم يبرح سيدنا أنس ﷺ طريق الإيجاز المعبر فجاء وصفه لأحداثها في ثلاث جمل عطفت بفاء الترتيب والتعقيب وهي على وجازتها معبرة أتم التعبير ومركزة أتم التركيز، وهذه الجمل القصيرة المعبرة تعد من طبع سيدنا أنس ﷺ في التعبير، وهذه الجمل هي قوله: (فَأُتِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِوَضُوءٍ، فَوَضَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي ذَلِكَ الإِنَاءِ يَدَهُ، وَأَمَرَ النَّاسَ أَنْ يَتَوَضَّئُوا مِنْهُ) .

ونلاحظ أنه ﷺ يصف حالة النبي ﷺ في وضوئه فعبر بالماضي مبنياً للمجهول " فأُتى " وهذا نوع من إيجازه؛ لأنه . ذلك التعبير . أمكنه من طي الفاعل فلم يذكره ، حيث لا فائدة في كون الآتي فلان أو غيره ، وهذا منه جريًا على عادته في توفير الكلام على الغرض المراد ، والتركيز على الجزء الأهم من الحديث وحتى لا يشغل المستمع بغير الغرض الذي يؤمه ويقصده والمتمثل في هذه المعجزة الباهرة لرسول الله ﷺ وأكد على قلة الماء بتنكيره لكلمة (بوضوء) وتلمح في إيثاره لهذه المادة . الوضوء وبوضوء . حرصه على تبيين ما تعلقت به حاجة الصحابة آنذاك وهو القدر الكافي للوضوء فلم يعبر بـ (الماء) لئلا يُتوهم

(١) دلالات التراكيب ص ٢٤٠ .

أنهم يطلبون كثيراً منه يفيض عن الوضوء ، فإتيانه بالفعل مبنياً للمجهول مع تنكيره لكلمة (وضوء) يشير إلى أن رجلاً مجهولاً أتى بماء قليل يكفي الوضوء بالكاد فهذا منه ﷺ بمثابة الوطاء للمعجزة، وهذه الجملة على صغرها (فَأُتِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِوَضُوءٍ) تقابل خمس جمل عند سيدنا جابر ﷺ من قوله: (هَلْ فِي الْقَوْمِ مِنْ مَاءٍ؟)إلى قوله: (فَتَوَضَّأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ) .

ومما يدهش ويبهر تعبيره عن الماء المعد للوضوء بـ (الوضوء) فعبر بالحال وأراد المحل وترجع فائدة هذا المجاز المرسل إلى نهجه في ميله إلى الإيجاز هنا فعبر به دون ما يحويه حتى يصل إلى المراد من أقرب طريق، فلو عبر بإناء مثلاً لاحتاج إلى أن يطيل في الكلام بذكر ما يحويه وسبب المجيء به، فقد أمكنه التعبير بهذه الكلمة الغنية الموحية من التغاضي عن كل ما يتعلق بوضوئه ﷺ .

أما سيدنا جابر ﷺ فقد فصّل في وصف الأحداث؛ فذكر سبع جمل ونوّع في استخدام الرابط فاستخدم الفاء عندما تتوالى الأحداث وتتلاحق على وجه السرعة، وثم عندما يتخلل الأحداث فاصل زمني فقال ﷺ (فَجَاءَ رَجُلٌ يَسْعَى بِإِدَاوَةٍ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ مَاءٍ) فبنى الفعل للمعلوم ، وذكر الفاعل وحاله وذكر الإداوة التي تحمل الماء القليل وكل هذا يعد إطنابًا بالنسبة لتعبير سيدنا أنس ﷺ لكنه مناسب لسياقه .

ونلاحظ أنه ﷺ عبر بـ (جاء) بينما عبر سيدنا أنس ﷺ بـ (أتى) وذلك يرجع إلى سياق كل حادثة منهما، فقد عُبِّر في كل مقام بما يقتضيه فكلاهما مناسب تمام التناسب، فلما كان السياق عند سيدنا أنس ﷺ يومئ إلى سهولة الحصول على الماء لكون الحادثة حضرًا عبر بـ (أتى) ، و"جمهرة أهل اللغة على أن الإتيان مجيء بسهولة، وعلى أن مرجع السهولة فيه إلى كون الحركة صادرة عن طواعية ورغبة، أو لوقوع الفعل حال انقياد وطاعة، أو في معرض بيان التفضل به دون وجوب أو إلزام، أو في مقام بيان سهولته لقدرة الفاعل

عليه؛ أو لأن الإتيان قد فارقه ما يجعله صعبًا، وفي جميع المقامات والسياقات التي تدل على سهولة المجيء".[١]

فلكل هذه المعاني آثر سيدنا أنس ﷺ التعبير بـ (أتى) بينما آثر سيدنا جابر ﷺ التعبير بـ (جاء) لأن السياق يومئ إلى صعوبة الحصول على الماء فالمجيء هنا هو الملائم لأنه لا يكون عن رغبة وطواعية، كما في (أتى) ودون قهر أو إلزام بل يكون مطلوبًا أو متوقعًا منتظرًا بقرائن الأحوال والسياق". [٢]

وقد سبق ما يمهد لمجيئه وهو قول الرسول ﷺ: (هَلْ فِي الْقَوْمِ مِنْ مَاءٍ؟) فكان هذا السؤال مظنة لأن يجيء أحدهم به وموطئاً لإيثاره واختياره .

وتعبيره ﷺ بالجملة الحالية إطناب، فقد ذكر حال الرجل عند قدومه وأنه جاء (يسعى) والسعي "المشي السريع وهو دون العدو ويستعمل للجد في الأمر خيرا كان أو شرا" [٣] ومن معانيه "الْقَصْد، وَبِذَلِك فسر قَوْله تَعَالَى:﴿فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [٤] وعند تأمل هذه الجملة الحالية في مقابلة نظيرتها السابقة عند سيدنا أنس ﷺ (وحانت صلاة العصر) تجد هناك الإيجاز والتركيز الذي أتاح له طي الأحداث، أما هنا فتجد فيها إطنابا واستطرادا فهذه لطيفة دقيقة بين الجملتين الحاليتين .

وعبر عن قلة الماء المُحضَر بقوله: (فيها شيء من ماء) فكلمة شيء تشعر بقلة الماء وزاد في ذلك الشعور تنكيره لكلمة ماء مع أن الإداوة تستعمل في الماء فقط، فـ"الإِدَاوَةُ، بِالْكَسْرِ: إِنَاءٌ صَغِيرٌ مِنْ جِلْدٍ يُتَّخَذُ لِلْمَاءِ" [٥] ولما كانت

(١) الإتيان والمجيء (بتصرف) ص ١٧ .

(٢) ينظر السابق ص ٧١ .

(٣) المفردات في غريب القرآن ص ٢٣٨ .

(٤) المحكم والمحيط الأعظم (سعى).

(٥) لسان العرب (أدا).

الإداوة، بهذه الكيفية فصّل ﷺ فقال : (فَصَبَّهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي قَدَحٍ) حتى يمكنه الوضوء، وهذا التعبير منه –أيضًا– إشارة إلى قلة الماء ، فقد عبر بـ (صب) دون سكب أو ما يؤدي هذا المعنى؛ لأن السكب هو الصب المتتابع، أما الصب يكون دفعة واحدة، لهذا يقال صبه في القالب ولا يقال سكبه فيه"(١).

وكذلك تعبيره بالقدح يومئ إلى قلة الماء فالقدح "آنية للشرب معروفة، قال أبو عُبيد تُروى الرجلين... أو هو اسم جامع للصغار والكبار منها"(٢)، والسياق يقوى أنه قدح صغير والتعبير عن قلة الماء أمر يحرص عليه سيدنا جابر ﷺ، ففي روايته للحديث عند مسلم قال: " فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي لَمْ أَجِدْ فِيهَا إِلَّا قَطْرَةً فِي عَزْلَاءِ شَجْبٍ مِنْهَا، لَوْ أَنِّي أُفْرِغُهُ لَشَرِبَهُ يَابِسُهُ". (٣)

ثم يواصل إطنابه ﷺ النابع عن انفعاله بالمعجزة ورغبته في شرح تفصيلاتها بذكر جملتين كان يمكنه الاستغناء بالثانية منهما فقال: (فَتَوَضَّأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ) فلم يكتف بالجملة الأولى مع أنها السبب في كل ما قصه وسرده من أحداث لكنه لشدة انفعاله لم يقتنع بها حتى ضم إليها الجملة الثانية (فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ) وأحسن سيدنا جابر ﷺ في ذكره لها؛ لأنها أفادت أن الكرامة النبوية والمعجزة التي ستحدث علي يديه ﷺ بدأت إرهاصاتها من تلك اللحظة، فهذا الماء الذي بالغ في وصفه بالقلة توضأ منه الرسول الكريم ﷺ وضوءًا كاملاً غير منقوص، فهذا يومئ إلى بركة جسده ﷺ حتى إن الماء القليل بلمسه له نما وزاد ففيه تنبيه منه ﷺ على مكمن المعجزة وموطنها وهو الجسد الطاهر ﷺ .

(١) الفروق اللغوية ص ٣٠٩ .

(٢) ينظر تاج العروس (قدح).

(٣) صحيح مسلم ٤/ ٢٣٠٧ "كتاب الزهد والرقائق، بَابُ حَدِيثِ جَابِرٍ الطَّوِيلِ وَقِصَّةِ أَبِي الْيَسَرِ" حديث رقم (٣٠١٣).

ومن مظاهر إطنابه –كذلك– تكراره لقوله: (رَسُولُ اللهِ ﷺ) فقد كرره سبع مرات بعد كل فعل وقول يصدر من النبي ﷺ استلذاذًا بذكره ﷺ وانبهارًا بما وقع على يديه ﷺ من إعجاز، ومعلوم أن التكرار يكون في المواقف ذات الامتلاء والحس الطاغي فلذا آثر التكرار ولأنه ﷺ يجعل المعجزة كما رأينا متعلقة به ﷺ دون أي شيء آخر وهذا مدعاة لتكرار اسم النبي ﷺ أو وصفته، ولأن لفظ الرسالة أكثر تلاقيا مع مقام الإعجاز.

وهنا تغيرت طريقة التعبير واستعمل (ثم) فغير العاطف في قوله: (ثُمَّ انْصَرَفَ، وَتَرَكَ الْقَدَحَ) فأتى بـ(ثُمَّ) فآذنت بطول النفس وتخلل زمن طويل بين وضوئه وانصرافه ﷺ وكأن هذا الفراغ الذي أوجده في الكلام كان لتتهيأ النفوس لاستقبال المعجزة الباهرة، ولم يخل التعبير من الإطناب –أيضًا– فكان يمكنه الاكتفاء بالجملة الأولى (ثم انصرف) ولكنه ذكر الثانية لما لها من أثر في السياق فهي تشتمل على لفظ (القدح) الذي جعله موطن المعجزة ومكمنها؛ لذا نراه يحرص على تكراره فقال واصفًا حال الصحابة: (فركب الناس القدح تمسحوا وتمسحوا فقال رسول الله ﷺ على رسلكم حين سمعهم يقولون ذلك) وتكرار الكلمة يرمي إلى تحقيق أغراض وأهداف لا تقف عند توكيد المعنى والاحتياط له، ففيه بيان مزايا ما ينطوي عليه ذلك من إحساس مفعم بهذه الكلمة"[1] فقيمة هذا التكرار ترجع إلى تقوية الإحساس بهذه اللفظة، فالقدح كما قال أبو عبيد. فيما سبق . يروي الرجلين فقط ومع ذلك اندفع منه الماء كالعيون ومن هنا كان التكرار صائب الموقع كاشف للإعجاز .

ثم إنه ﷺ صور حال الصحابة وهذا لم يتعرض له سيدنا أنس ﷺ فقد صورهم في صورة بارعة جمع بين تصوير قولهم وفعلهم فجملة (فَرَكِبَ النَّاسُ

(١) نظرات بيانية في قصيدة جعفرية (دار الحبيب أحق أن تهواها) ص ٣٨ ، ٣٩ .

الْقَدَحَ) بما تشتمل عليه من استعارة بليغة كشفت عن ازدحام الصحابة . رضوان الله عنهم . على القدح لينالوا بركته ﷺ وهذا يدل على فرط المحبة والاغتباط بموافقته والحرص على اتباع آثاره .

فصور قولهم في قوله: (تَمْسَحُوا، وَتَمْسَحُوا) فحذف القول وعبر بفعلهم ليبرز حرص الصحابة على التماس بركته ﷺ والحاجة الشديدة إلى الماء وكثرة عدد الصحابة وهذا مما يجعل أثر المعجزة عظيماً في النفوس وغرضه من ذلك أن يؤكد على بلوغ الأمر في الشدة مبلغاً عظيماً جعلت الصحابة . وهم أرجح البشر عقلاً . يصدر منهم ما صدر (فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "عَلَى رِسْلِكُمْ) "والرِّسلُ: الهَيْئَةُ والسُّكُون"[١] ومن معانيه الرفق والتؤدة يقال : "افعلْ كَذَا وَكَذَا عَلَى رِسْلك، بِالْكَسْرِ، أَي اتَّئِدْ فِيهِ" [٢]، وفائدة هذا التعبير هو أن تعود الأمور إلى نصابها الطبعي وإشاعة جو من الهدوء والسكينة قبل لحظات الإعجاز وكل هذه التفصيلات لم يتعرض لها سيدنا أنس ﷺ.

ونلاحظ أن سيدنا أنس انتقل إلى الجملة الوصفية الثانية بقوله: (فَوَضَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي ذَلِكَ الإِنَاءِ يَدَهُ) فعطفها على سابقتها بالفاء التي تفيد أن وضعه ﷺ يده في الإناء كان عقب وضوئه مباشرة وفي ذلك تركيز على الأحداث المهمة وترك ما عداها، وهذا جعله يعبر بـ (إناء) ولم يجر له ذكر في السياق فعرفه بلام العهد الخارجي الكنائي؛ لأنه ذكر الوضوء ولم يذكر الإناء، وهذا الانتقال في التعبير ينطوي على لفته بارعة ندرك من خلالها أن هذا الصحابي الجليل كان يزن كلامه بميزان حساس، فلا ينطق بالكلمة –بل بالحرف– إلا إذا كان له مدخل في الإفادة؛ لأنه لو أعاد ذكر (الوضوء) لكان به حاجة إلى ذكر الوعاء الذي يحمله لأنه جعله موطن المعجزة . كما سبق . ويدل

(١) كتاب العين (رسل).

(٢) لسان العرب (رسل).

على ذلك الإشارة إليه (بذلك) التي يشار بها للبعيد لقصد تعظيمه لما له من أهمية في سياق الحديث، حيث ظهرت كرامة النبي ﷺ ومعجزته فيه، وعلماء البلاغة يقولون: "يُعرَّف المسند إليه باسم الإشارة؛ لقصد تعظيم معناه بسبب دلالته على البعد، فينزل بعد درجته وشرف منزلته منزلة بعد المسافة، فيستعمل له اسم الإشارة الدال في الأصل على البعد"(١).

وفي هذا المعنى عبر سيدنا جابر ﷺ بقوله: (فَوَضَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ كَفَّهُ فِي الْمَاءِ وَالْقَدَحِ) ونلاحظ أنه ﷺ عبر بالكف بينما عبر سيدنا أنس ﷺ بـ (اليد) لما في الكف من إيحاءات تُلائم هذا السياق، ومنها "أَنَّها "تَكُفُّ عَن صاحِبها، أَو يَكُفُّ بهَا مَا آذاه، أَو غير ذلِكَ" (٢) والقوم في إيذاء حقيقي؛ نتيجة عدم وجود الماء فالتعبير بها أولى، فلما كان سيدنا جابر ﷺ حريصًا على تفصيل أجزاء المعجزة عبر بـ(الكف) ليدل على حصول المعجزة بأقل عضو للنبي ﷺ مقارنة بكلام سيدنا أنس ﷺ الذي عبر باليد ومعناها أوسع من الكف فقد قالَ أبو إِسْحاقَ: "اليَدُ: من أَطْرافِ الأَصابِعِ إلى الكَتِفِ"(٣) وأيضًا لما في الكف من معنى الدفع والقبض والبسط عبر بها في هذا السياق الهادر بالحركة . كما سبق . وتعبير سيدنا أنس ﷺ باليد فيه تكريم للنبي ﷺ وتثبيت لقلوب المؤمنين فقد "قالَ ابنُ جِنِّي: أَكْثَرُ ما تُسْتَعْمَلَ الأَيادِي فيِ النِّعَمِ لا فِي الأَعْضاءِ"(٤) ووقوع الحادثة حضرًا يساعد على هذا الفهم.

وقوله: (فِي الْمَاءِ وَالْقَدَحِ) يشير إلى لطيفة وهي تدرجه ﷺ ومتابعته للماء القليل ابتداء من المطهرة (الإداوة) التي تحمل الماء القليل الذي لو أفرغ منها

(١) شرح مواهب الفتاح ١/١٧٧ .
(٢) تاج العروس (كفف).
(٣) المحكم والمحيط الأعظم (يدي).
(٤) المحكم والمحيط الأعظم (يدي).

لشربه يابسها إلى القدح الذي لا يروي إلا اثنين إلى الماء هنا، وهذا يومئ إلى أن بركة النبي ﷺ ومعجزته بدأت مقدماتها بوضوئه من القدح فزاد فتزاحم عليه الصحابة فلم ينفد بل بقي فيه الماء الكثير الذي وضع فيه النبي ﷺ كفه .

ثم ختم سيدنا جابر ﷺ وصفه للأحداث بجملتين توضحان لحظات الإعجاز: (ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: بِسْمِ اللهِ "، ثُمَّ قَالَ: " أَسْبِغُوا الْوُضُوءَ) فتغير العاطف مرة ثانية فأتى بـ (ثم) لأنه بدأ يسرد لحظات المعجزة، وهذا يحتاج إلى ترو وإلى تفاعل مع الأحداث، فالجملة الأولى تشير إلى استمرار وضع الرسول الكريم ﷺ يده في الماء بعد فراغه من الوضوء، وهذا لفت للحضور لأنه لابد أن يكون ذلك منه ﷺ لعلة وهي المفاجأة التي تبهر العقول، وتشرح الصدور، والتسمية منه ﷺ لاستصحاب المعية الإلهية القادرة على تغيير النواميس الكونية، ثم إنها طلب للبركة التي صرح بها فقد روي عنه: "فَأتى النَّبِي ﷺ فَأدْخل يَده فِيهِ، وَفرج بَين أَصَابِعه، وَقَالَ: حَيّ على أهل الْوضُوء وَالْبركَة من الله".[١]

ثم عطف على تلك الجملة، الجملة الثانية بـ (ثم) فتخلل الزمن مرة ثانية بين الأحداث وعبر سيدنا جابر ﷺ بقوله: (أَسْبِغُوا الْوُضُوءَ) فعبر بـ (أسبغوا) والإسباغ يفيد التمام و "إسباغ الوضوء المبالغة فيه" [٢] و"درع سابغ تام واسع، قال الله تعالى: ﴿أَنِ ٱعۡمَلۡ سَٰبِغَٰتٖ﴾ [٣] "وعنه استعير إسباغ الوضوء وإسباغ النعم"[٤] فأفاد التعبير بها الإشارة إلى كثرة الماء وأنه فاض وتعدى الحاجة كما أنه مناسب لمقام الإعجاز فالصحابة منذ قليل تزاحموا على القدح وما فيه

(١) الجمع بين الصحيحين البخاري ومسلم للحميدي٢/ ٣٥٦ حديث رقم(١٥٧٧).
(٢) المحكم والمحيط الأعظم (سبغ).
(٣) سورة سبأ من الآية (١١) .
(٤) المفردات في غريب القرآن ص ٢٢٨ .

إلا القليل من الماء فجاء هذا التعبير يحمل لهم البشرى والتذكير بنعمة الله تعالى.

وعبر سيدنا أنس ﷺ عن هذا المعنى بقوله: (وَأَمَرَ النَّاسَ أَنْ يَتَوَضَّئُوا مِنْهُ) فلم يزد على هذه الجملة ولم يتحدث عن كرامة الله تعالى للنبي ﷺ ولم يلتفت إلى شيء آخر، وتعبير سيدنا جابر ﷺ أقوى في الدلالة لإيثاره التعبير بالإسباغ دون الوضوء؛ ولأن الأمر جاء فيه صراحة ولم يأت الأمر بالوضوء صراحة في كلام سيدنا أنس ﷺ، بل تأويلاً .

المحور الثالث: أثر المعجزة

جاء بيان سيدنا أنس ﷺ عن المعجزة مركزًا –أيضًا– فعبر بقوله: (فَرَأَيْتُ المَاءَ يَنْبُعُ مِنْ تَحْتِ أَصَابِعِهِ حَتَّى تَوَضَّئُوا مِنْ عِنْدِ آخِرِهِمْ) ونلاحظ أن سيدنا أنس ﷺ أعاد الرؤية التي ذكرها في بداية الحديث لأهمية هذا المقطع من المعنى فهو لحظة الإعجاز فأعاد الرؤية لينفي ما قد يكون قد علق بالقلب تجاه المعجزة من شك.

وتعبيره بالمضارع (ينبع) استحضارًا لذلك الحدث الجليل الذي يأخذ بالألباب ولكي يرسم تلك الصورة خالف في نسق الأفعال وكان يمكنه التعبير بالماضي فعدل إلى صيغة المضارع؛ لقصد حكاية الحال" ومعنى حكاية الحال أن يقدر المعنى الماضي حاضرًا الآن أو يقدر المتكلم نفسه حاضرًا فيما مضى، فيعبر عن ذلك المعنى بصيغة الحضور وهي صيغة المضارع؛ لأنها تدل في الأصل على أن المعنى موجود حال التكلم، وإنما يعتبر ذلك إذا كان ذلك المعنى فيه غرابة وإعجاب، فيقصد إلى إحضاره ليتعجب منه بما يمكن وهو الصيغة"[1].

(١) شرح مواهب الفتاح ٦٤٧/١ .

وقوله: (مِنْ تَحْتِ أَصَابِعِهِ) يفيد خروج الماء فيما بين أصابعه ﷺ والإناء، وقوله: (حَتَّى تَوَضَّئُوا مِنْ عِنْدِ آخِرِهِمْ) يفيد هذا التعبير أن الصحابة تم وضوؤهم على أحسن وأكمل وجه وأن الماء كان من الوفرة بحيث تساوي نصيب آخرهم مع نصيب أولهم، "قَالَ الْكِرْمَانِيُّ حَتَّى لِلتَّدْرِيجِ وَمِنْ لِلْبَيَانِ أَيْ تَوَضَّأَ النَّاسُ حَتَّى تَوَضَّأَ الَّذِينَ عِنْدَ آخِرِهِمْ وَهُوَ كِنَايَةٌ عَنْ جَمِيعِهِمْ"(١)، وهذا يومئ إلى أثر هذه المعجزة على سيدنا أنس ﷺ فقد أصيب بذهول جعله لا يجد من الكلمات ما يوفي به المعجزة حقها فلجأ إلى هذا التركيب الذي جمع فيه بين أول الصحابة وآخرهم في نفس واحد، ومثل هذا يقال في تكرار لفظ الوضوء (توضأ) بصيغة الماضي؛ لأنه يكشف عن مدى انفعاله بالمعجزة عن طريق التأكيد على وفاء المعجزة بما جاءت لأجله ولهذا كرره، وإيثاره المضارع قبلًا (ينبعُ) جارٍ على هذا السبيل من شدة الانبهاره بالمعجزة .

أما سيدنا جابر ﷺ فقد جاء أثر المعجزة عليه عظيمًا حيث قال: (فَوَالَّذِي هُوَ ابْتَلَانِي بِبَصَرِي لَقَدْ رَأَيْتُ الْعُيُونَ، عُيُونَ الْمَاءِ، يَوْمَئِذٍ تَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فما رفعها حَتَّى تَوَضَّئُوا أَجْمَعُونَ) فنلاحظ أن تعبيره لم يخل من الإطناب الذي اكتسى عباءة التوكيد؛ فلم تخل لفظة واحدة من التوكيد وكأن سيدنا جابر ﷺ دهش كما دهش سيدنا أنس ﷺ الذي تحير في التعبير فجعل التوكيد وسيلته في التعبير فقال: (فوالذي) والأصل فوالله الذي، واسم الموصول فيه يفيد تعظيم المقسم به، وإتيانه بضمير الفصل (هو) تأكيد فوق توكيد وكأنه بذلك يشير إلى القوي القادر –سبحانه وتعالى– الذي أمكن نبيه الكريم من تلك المعجزة ، وفي قوله: (ابْتَلَانِي بِبَصَرِي) لطيفة وهي أن هذه المعجزة وقتية متعلقة بالبصر، فالتعبير بذلك أدعى لصدقه؛ لأنه ﷺ كان قد عمي في نهاية حياته،

(١) فتح الباري لابن حجر ١/٢٧١.

وتشير إلى صدقه في التعبير وتأكيده على مشاهدته المعجزة وحضوره زمانها وانفعاله بأحداثها.

ومن عناصر التوكيد التي ذكرها قوله: (لَقَدْ رَأَيْتُ الْعُيُونَ، عُيُونَ الْمَاءِ) فأكد باللام وقد والماضي الذي يفيد تحقق الوقوع و (أل) في (العيون) للعهد المفهوم من السياق وكان يمكنه الاكتفاء بذلك لكنه ضم إليه كلمة (عيون الماء) تأكيدًا على تأكيد، ومن ترديده للعيون ابتهاجًا بكرم الله تعالى، وقوله: (يومئذ) تأكيد أيضًا؛ لأنه بذكر الزمن واستحضاره يمكنه من استعادة الأحداث، لأنها حينئذ تتداعى وتتوارد عليه دون أن يشذ منها جانب واحد .

ونلاحظ أن سيدنا جابرًا ﷺ اتفق مع سيدنا أنس ﷺ في التعبير بالماضي (رأيت) والمضارع (ينبع ، تخرج) وقد تبين سر التعبير بالماضي والمضارع بقي لماذا عبر سيدنا أنس ﷺ بـ(ينبع)، وعبر سيدنا جابر ﷺ بـ(تخرج) ؟ والجواب عن ذلك أن سيدنا أنسًا ﷺ أراد أن يضفي على حديثه عن المعجزة صفة الشدة أو القوة فعبر بنبع ومعناه "تَفَجَّر، وَقِيلَ: خَرَجَ مِنَ الْعَيْنِ"[1] فهو بذلك يصف حالة الماء عند بداية خروجه فالتعبير بذلك هو الملائم للسياق، أما سيدنا جابر ﷺ فكان السياق عنده مشعر بالقحط الشديد حتى كأن وجود الماء أمر مستحيل، ومن تمام المعجزة هنا أن يعبر بما يفيد السهولة في خروج الماء؛ لذا آثر التعبير بـ (تخرج) ليناسب السياق؛ إذ ليس في الخروج من الشدة مثل ما في النبع، وقوله: (من بين أصابعه) أقوى وأدخل في المعجزة من كلام سيدنا أنس ﷺ؛ لأنه يفيد أن خروج الماء كان من بين جلده الشريف ﷺ ويجعل للمعجزة ارتباطًا به ﷺ أكثر من رواية سيدنا أنس ﷺ لأن معنى"(مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهِ) أَيْ مِنْ نَفْسِ لَحْمِهِ الْكَائِنِ بَيْنَ أَصَابِعِهِ أَوْ مِنْ بَيْنِهِمَا بِالنِّسْبَةِ إِلَى رُؤْيَةِ الرَّائِي وَهُوَ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ

(١) لسان العرب (نبع) .

لِلْبَرَكَةِ الْحَاصِلَةِ فِيهِ وَالْأَوَّلُ أَوْجَهُ" [١] وقوله: (فما رفعها حَتَّى تَوَضَّئُوا أَجْمَعُونَ) تفيد امتداد زمن المعجزة بما يتناسب مع انفعاله ﷺ بها فهذا يدل على أن الماء بقي مدة رفعه ﷺ يده يتفجر وينبع، ولهذا دلالته من حيث عدد الرائين للمعجزة من ناحية، ومن ناحية أخرى زيادة مدة التأثر بالمعجزة فلم تكن كلمحة خاطفة بل امتدت لزمن بعيد يُقدر بما تحويه كلمة حتى من بعد ، ثم لتصريحه بالتوكيد في قوله : (أجمعون) فقد جمع ﷺ التوكيد اللفظي والمعنوي في وصف أثر المعجزة على نفسه وانفعاله البالغ إزاءها .

من هنا نجد أن وصف سيدنا أنس ﷺ للأحداث وللمعجزة كان في غاية الدقة والتركيز؛ فقد عبر بخمس جمل كما رأينا "لا تستطيع أن تقف دون تمامها؛ لأنها كوّنت معنى واحدًا، ثم تأمل الفاءات وأثرها في ربط هذه الجزئيات وكيف صيّرتها هذه الفاءات لبنات ينبي بعضها على بعض حتى تكوّن بنية معنوية واحدة"[٢] أما سيدنا جابر ﷺ فتميز بيانه بالشرح والتفصيل وجاء تعبيره مثاليًا التئم فيه شكل الكلام مع جوهره وخرج في نهاية المطاف معبرًا عما يعتمل في نفسه ويجول في خاطره تجاه المعجزة .

(١) تحفة الأحوذي١٠/ ٧٧.

(٢) شرح أحاديث من صحيح البخاري ص١٤٩ .

المبحث الثاني: سمت بيان سيدنا أنس وسيدنا جابر-رضي اللّه عنهما- بين قوة الأسلوب ورقّته.

المطلب الأول: قوة أسلوب سيدنا أنس ﷺ في سياق معجزة حنين الجذع للنبي ﷺ .

اختلف أسلوب الصحابيين الجليلين في التعبير عن معجزة حنين الجذع للنبي ﷺ الباهرة اختلافًا مرجعه انفعال كل منهما بهذه المعجزة، وإلى شهوده لأحداثها ومعايشة أجوائها، فسيدنا أنس ﷺ عاش أحداث المعجزة وسمع حنين الجذع بأذنه، فكان لذلك الأثر الأكبر على نفسه وعلى بيانه، فجاء عرضه للأحداث عرضًا دقيقًا مرتبًا ترتيبًا بديعًا تبني فيه الجملة على سابقتها في يسر وسهولة، وتنحدر انحدارًا ينم عن إحاطة بالغة بالجزئيات الدقيقة والتفصيلات الأخاذة، فقوة الأسلوب عند سيدنا أنسﷺ تبدت في بيانه المحكم وسبكه المبهر الذي تضامت والتصقت فيه الجمل وكشفت عن المعجزة بصورة أظهر مما عند سيدنا جابرﷺ وقد انتظم بيانهما عن هذه المعجزة ثلاثة محاور أساسية:

المحور الأول: التمهيد للمعجزة .

المحور الثاني: الحديث عن المعجزة .

المحور الثالث: أثر المعجزة.

حديث سيدنا أنس ﷺ:

روى الإمام أحمد بسنده عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أنه قَالَ: "كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِذَا خَطَبَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، يُسْنِدُ ظَهْرَهُ إِلَى خَشَبَةٍ، فَلَمَّا كَثُرَ النَّاسُ قَالَ: " ابْنُوا لِي مِنْبَرًا " أَرَادَ أَنْ يُسْمِعَهُمْ، فَبَنَوْا لَهُ عَتَبَتَيْنِ، فَتَحَوَّلَ مِنَ الْخَشَبَةِ إِلَى الْمِنْبَرِ، قَالَ: فَأَخْبَرَنِي

أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ، أَنَّهُ سَمِعَ الْخَشَبَةَ تَحِنُّ حَنِينَ الْوَالِهِ قَالَ: فَمَا زَالَتْ تَحِنُّ حَتَّى نَزَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنِ الْمِنْبَرِ، فَمَشَى إِلَيْهَا فَاحْتَضَنَهَا، فَسَكَنَتْ".(١)

حديث سيدنا جابر رضي الله عنه:

روى الإمام أحمد بسنده عَنْ جَابِرٍ أنه قَالَ: "كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَخْطُبُ إِلَى جِذْعِ نَخْلَةٍ، قَالَ: فَقَالَتْ امْرَأَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ كَانَ لَهَا غُلَامٌ نَجَّارٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ لِي غُلَامًا نَجَّارًا، أَفَلَا آمُرُهُ أَنْ يَتَّخِذَ لَكَ مِنْبَرًا تَخْطُبُ عَلَيْهِ؟ قَالَ: "بَلَى" قَالَ: فَاتَّخَذَ لَهُ مِنْبَرًا، قَالَ: فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ خَطَبَ عَلَى الْمِنْبَرِ، قَالَ: فَأَنَّ الْجِذْعُ الَّذِي كَانَ يَقُومُ عَلَيْهِ كَمَا يَئِنُّ الصَّبِيُّ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: " إِنَّ هَذَا بَكَى لِمَا فَقَدَ مِنَ الذِّكْرِ". (٢)

المحور الأول: التمهيد للمعجزة

عند النظر في هاتين الروايتين نجد أن التمهيد للمعجزة الذي يمثل المحور الأول قد اشتمل على العديد من الجمل، فقد افتتح الصحابيان الجليلان كلامهما عن هذه المعجزة بقولهما: (كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ) وفوق أنها تدل على تحقق الحدوث في الماضي بما يثبت ما يقال وينفي الشك والريبة فيه؛ فإنها تشير – كذلك– إلى أمر اعتاد عليه ﷺ أثناء الخطبة، وهو الاستناد إلى الجذع ويدل – أيضًا– على أنهما أرادا بهذا التعبير أن يمحضا الحديث عن صاحب هذه المعجزة ﷺ دون غيره، وأن ينصبّ كلامهما عليه منذ الوهلة الأولى؛ فكانت هذه الجملة التي تبعد عن مخيلة السامع كل من سوى رسول الله ﷺ ثم إن لفظ (رسول الله) الذي آثره كل منها يحتوي على دقيقة وله مغزى جليل فالمقام مقام

(١) مسند الإمام أحمد ٧١/٢١ حديث رقم (١٣٣٦٣) .

(٢) السابق ١١٧/٢٢ حديث رقم (١٤٢٠٦) .

إعجاز والمعجزة يناسبها لفظ (رسول) دون لفظ (نبي) فتصدرها في الروايتين يوحي بحدث جلل يتناغى مع لفظ رسول .

والإضافة إلى (الله) لمزيد من التشريف لرسول الله ﷺ وحثًا على وجوب اتباعه ولها أهمية في هذا السياق ، فهي إيذان بصدقه ﷺ منذ البداية؛ وهذا مما يزيد المؤمنين إيمانًا وينفي ما قد يكون علق بالقلوب من شك أو ريبة، ودعوة للكفار إلى اعتناق الإسلام والإيمان به عليه الصلاة والسلام لأنه مبعوث من قبل الله تعالى .

وبعد هذه الجملة التي كانت محل اتفاق بينهما اختلف أسلوب الصحابيين؛ تبعًا لما تقدم من انفعال بالمعجزة وشهود لأحداثها فامتطى سيدنا أنس ﷺ الجملة الشرطية (إِذَا خَطَبَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، يُسْنِدُ ظَهْرَهُ إِلَى خَشَبَةٍ) وهي جملة خصبة ومركزة، ويبدو فيها بيان سيدنا أنس ﷺ المحكم وتأليفه المسبك فـ(إذا) ظرف لما يستقبل من الزمان متضمنة معنى الشرط، ويكثر مجيء الماضي بعدها مرادًا به الاستقبال[1] فابتداؤه بها يدل على ربطه للجمل وشد بعضها لبعض، كما أن هذه الجملة تطوي في معاطفها زمان خطبته ﷺ وتحديد الزمان يساعد على التركيز في عرض الأحداث ويدفع السامع إلى متابعة أحداث هذا الزمان المحدد، وقد قدمه هنا لأنه حضر أحداث المعجزة من بدايتها فآثر ذكر زمانها، وتشير من طرف خفي إلى سبب اتخاذ المنبر وهو ما عرض للنبي ﷺ من تعب وإعياء جعله يسند ظهره إلى الخشبة، فعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ، "أَنَّ تَمِيمًا الدَّارِيَّ قَالَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ لَمَّا أَسَنَّ وَثَقُلَ: أَلَا نَتَّخِذُ لَكَ مِنْبَرًا تَحْمِلُ، أَوْ تَجْمَعُ، أَوْ كَلِمَةٌ تُشْبِهُهَا، عِظَامَكَ، فَاتُّخِذَ لَهُ مِرْقَاتَانِ أَوْ ثَلَاثَةٌ..."[2] وفي طبقات ابن سعد تصريح بالمشقة التي كان يلقاها ﷺ فقد أورد الحديث الذي رواه أبو هريرة ﷺ "كان رسول

(١) ينظر الجني الداني في حروف المعاني ص ٣٦٧ .

(٢) السنن الكبرى للبيهقي ٣/ ٢٧٧ حديث رقم (٥٦٩٩).

الله ﷺ يوم الجمعة يخطب إلى جذع في المسجد قائمًا، فقال: إن القيام قد شق عليّ" [١].

أما سيدنا جابر ﷺ فامتطى في سرده لأحداث المعجزة وتفاصيلها الجملة الفعلية (يَخْطُبُ إِلَى جِذْعِ نَخْلَةٍ) فعبر بالمضارع استحضارًا للمشهد ونقله برمته إلى مخيلة السامع حتى كأنه يرى النبي ﷺ يخطب ويعظ كأنه منذر جيش يقول صبحكم ومساكم، والتعبير هنا ليس كسابقه فقد خلا من بيان سبب المعجزة ووقتها، ولعله لم يذكر الوقت إيجازًا؛ لأنه من المعلوم أن الخطبة تكون يوم الجمعة؛ لذا ترك التصريح به حتى لا تطول الجملة وتترهل دون طائل وراءها أو لأنه سوف يذكر زمن المعجزة فيما بعد؛ وهذا هو الأقرب لما فيه من إيضاح للزمن بعد إبهامه، فالنفس تشرئب بعد سماع قوله: (يخطب) لتعرف هل كانت الخطبة يوم الجمعة أو في يوم آخر، فإذا فسر بعد ذلك كان أعلق بالقلب وألذ للسمع وأسكن للنفس، "لأن الإبهام يوجب ألم النفس، لجهلها به، والتفسير يوجب لذتها واللذة بعد الألم أقوى منها ابتداءً، وهذا معلوم بالوجدان". [٢]

ونلاحظ أن سيدنا أنسًا ﷺ يعبر عما كان يستند إليه النبي ﷺ بقوله: (خَشَبَة) بينما عبر سيدنا جابر ﷺ عن ذلك بـ (جذع نخلة) وتعبيره أدق؛ لأن المقام هنا مقام حنين وشوق والتأنيث هو الأكثر ملائمة لهذا السياق المفعم بالمشاعر والعواطف؛ فالحنين يختلف بالذكورة والأنوثة فهو في الثانية أعلى وأتم ، ثم في استعماله لـ (خشبة) جريًا على عادته في إلقاء الكلمة التي لها مغزى في السياق في بداية كلامه؛ فهو يريد أن يضفي على كلامه العطف والرحمة من بدايته، ثم إن التأنيث فيها يتفق مع الصورة التشبيهية البالغة في الروعة والجمال الآتية بعد (كحنين الناقة) وهذه الصورة التشبيهية واردة في كل رواياته لهذه

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد ٤٩/١ ، ٥٠.

(٢) الإشارات والتنبيهات في علم البلاغة ص ١٣٥ .

المعجزة؛ "وظاهِرُ المصْباحِ: قَصرَ الحَنِينَ على اشْتِياقِ المرْأَةِ لوَلَدِها"[١] وهذا ما يتناسب مع التأنيث في (خشبة) ففيها تأنيث المشتاق وهذا يزيد من جرعة الحنين ويضاعف من سورة الشوق، لما في التأنيث من سرعة التأثر بالأحداث يدل على ذلك ما رواه سيدنا أنس ﷺ عن النبي ﷺ من قوله لِخَادِمِهِ: «أَنَجَشَةُ، رِفْقًا قَوْدًا بِالْقَوارِيرِ يَعْنِي النِّسَاءَ". [٢]

أضف إلى ذلك أن هذه هي الرواية الوحيدة من بين روايات سيدنا أنس ﷺ التي طال فيها الحنين وزادت فيها مدة الشوق أكثر من غيرها من الروايات؛ لما يأتي من تعبيره بقوله: (فَمَا زَالَتْ تَحِنُّ حَتَّى نَزَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنِ الْمِنْبَرِ) بخلاف غيرها من الروايات فقد جاء هذا المقطع عند الحافظ أبو بكر البزار في مسنده "فَحَنَّ فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ"[٣] وفي سنن الدارمي: "خَارَ الْجِذْعُ كَخُوَارِ الثَّوْرِ حَتَّى ارْتَجَّ الْمَسْجِدُ حُزْنًا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَنَزَلَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْمِنْبَرِ، فَالْتَزَمَهُ وَهُوَ يَخُورُ"[٤] فليس فيهما استمرار الحزن واستدامته بل على العكس من ذلك؛ إذ نلحظ أن هناك قطعا له على وجه السرعة التي تستفاد من فاء الترتيب والتعقيب في الروايتين، أما هنا ففيها امتداد مساحة الحزن والأسى عن طريق قوله: (فما زالت) والتي تدل على أن استمرار الحنين لمدة طويلة زاد ذلك الطول عن طريق قوله: (حتى نزل) لذا استعمل سيدنا أنس ﷺ لفظة (خشبة) بينما استعمل سيدنا جابر ﷺ لفظ (الجذع) وهذا –أيضًا– ناشئ عن مدى انفعال كل منهما بالمعجزة.

(١) تاج العروس (حنن) .

(٢) مسند الحميدي ٣١٣/٢ حديث رقم (١٢٤٣).

(٣) مسند البزار البحر الزخار ١٣/ ٣٥٥ حديث رقم (٦٩٩٤).

(٤) مسند الدارمي ١/ ١٨٤.

ثم عطف سيدنا أنس ﷺ على تلك الجملة الشرطية جملة أخرى بفاء الترتيب والتعقيب تتصل بها –أيضًا– على عادته في ربط الكلام ببعضه، فهي تمثل سببًا آخر لاتخاذ المنبر وهي قوله : (فَلَمَّا كَثُرَ النَّاسُ قَالَ: " ابْنُوا لِي مِنْبَرًا) فاجتمع لاتخاذ المنبر سببان: الأول التعب والمشقة التي عرضت للنبي ﷺ وعدم تمكنه من القيام أثناء الخطبة، والآخر كثرة الناس، فاتخذ المنبر ليكون أدعى إلى إسماع الجحافل المؤمنة التي تستمع إلى رسول الله ﷺ ومما يؤكد الأمر الأول ما جاء في سنن الدارمي من حديث سيدنا أنس ﷺ وفيه "فَجَاءَهُ رُومِيٌّ، فَقَالَ: أَلَا أَصْنَعُ لَكَ شَيْئًا تَقْعُدُ عَلَيْهِ وَكَأَنَّكَ قَائِمٌ؟"(١) فهذه الرواية تدل على أن الرومي أراد أن يصنع المنبر للرسول ﷺ لأن المنبر أكثر راحة من حيث جلوسه عليه، ولأنه أفضل في الإسماع ، ومما يؤكد الأمر الثاني الجملة الاعتراضية الواردة في هذا الحديث (أَرَادَ أَنْ يُسْمِعَهُمْ)، وفي هذا الاعتراض فائدتان: أولاهما إسراع إلى المقصود والأخرى زيادة التأكيد على كون اتخاذ المنبر إنما كان لإسماع الصحابة الكرام .

وفي رواية سيدنا أنس ﷺ نجد أن الأمر ببناء المنبر جاء من رسول الله ﷺ في قوله: (ابْنُوا لِي مِنْبَرًا) وهي الجملة الوحيدة التي خرجت من فم الرسول ﷺ وهي جوهرة الكلام ولؤلؤته ولها بعد نفسي عميق على الجذع، وقد رتبت عليها باقي جمل الرواية، وارتبطت بها ارتباطًا وثيقًا؛ لأنها تعد اللبنة الأساسية التي قامت عليها الجمل بعدها، وانحدرت منها انحدارًا في غاية السرعة والدقة فقد شدت الجمل بعدها وأخذت بأعنتها إلى نهاية الحديث عن طريق فاء الترتيب والتعقيب فجاء ترتيبها هكذا: (فَبَنَوْا لَهُ عَتَبَتَيْنِ ، فتحول ... ، فأخبر أنس ... ، فَمَا زَالَتْ تَحِنُّ... ، فَمَشَى إِلَيْهَا فَاحْتَضَنَهَا، فَسَكَنَتْ)، ومع شدها لما تلاها من

(١) مسند الدارمي ١/ ١٨٤.

جمل فقد شدت انتباه الصحابة الحضور بما فيها من مجاز عقلي؛ حيث أسند النبي ﷺ فيها البناء إلى جميعهم مع أن البناء يقوم به بعضهم فمن علاقات المجاز العقلي "إسناد الفعل إلى الجنس كله وهو في الحقيقة مسند إلى بعضه كقولهم بنو فلان قتلوا فلانًا، وإنما القاتل رجل منهم" . (١)

أضف إلى ذلك أن هذه الجملة النبوية تنطوي على تشريع المنبر وضرورة أن يكون الخطيب بحال أعلى من المستمعين، وقد استلهم صاحب عمدة القاري من هذا الحكم بأن "فِيهِ اسْتِحْبَاب اتِّخَاذ الْمِنْبَر، وَكَون الْخَطِيب على مُرْتَفع كمنبر أَو غَيره. " . (٢)

وأرى في التقييد بالجار والمجرور (لي) وتنكير كلمة (منبرًا) كما هائلاً من التعظيم لا يقادر قدره، ولا يعرف كنه عظمته إلا الله . تعالى . فهو منبر عظيم اختص به النبي العظيم ﷺ ونسب إليه من يوم صنعه وإنشائه إلى يوم عفاء أثره وفنائه .

وهذه القوة الأسلوبية والتركيز على الأحداث الرئيسة والربط المحكم بين الجُمل يشير إلى شهود سيدنا أنس ﷺ لهذه المعجزة ولنصه على ذلك حين أخبر هنا بسماعه لحنين الجذع (فَأَخْبَرَنِي أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ، أَنَّهُ سَمِعَ الْخَشَبَةَ) فهذا التركيز والترتيب لم نجد له صدى عند سيدنا جابر ﷺ، فقد جاء بيانه في التمهيد للمعجزة خاليًا من تلك القوة والجودة والسبك، فبينما يصرح سيدنا أنس ﷺ بالسماع ويمتطي اللغة الواثقة . كما سبق . نجد أن سيدنا جابرًا ﷺ يشك ويتردد في التعبير؛ فقد جاء عند البخاري أنه تردد في الشيء الذي استند إليه النبي ﷺ أشجرة هو أم نخلة، كما تردد –أيضًا– فيمن عرض فكرة اتخاذ المنبر فلم يحقق القول أرجل هو أم امرأة حيث ذكر في هذه الرواية: "أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُومُ يَوْمَ

(١) خصائص التراكيب ص ١١٢ .

(٢) عمدة القاري ١٠٤/٤ .

الجُمُعَةِ إِلَى شَجَرَةٍ أَوْ نَخْلَةٍ فَقَالَتِ امْرَأَةٌ مِنَ الأَنْصَارِ، أَوْ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَا نَجْعَلُ لَكَ مِنْبَرًا؟ قَالَ: «إِنْ شِئْتُمْ»"[١] وليس فيها سوى المجاز المرسل؛ حيث أطلق الكل وأراد الجزء، بينما جاء التعبير عند سيدنا أنس ﷺ مبنيا على القطع بأنه ﷺ استند إلى خشبة ووضح . فيما سبق . ما في ذلك من إشارات تتفق والسياق.

ولم يذكر واحد منهما اسم النجار الذي قام بصنع المنبر، وإن كانت رواية سيدنا جابر ﷺ ذكرت أنه كان غلامًا لامرأة من الأنصار دون التصريح باسمه؛ لأنهما يريدان أن ينصب حديثهما على المعجزة وصاحبها ﷺ دون خوض في تفصيلات لا طائل تحتها، ولا تخدم الغرض المراد، وهذا واضح تمامًا عند سيدنا أنس ﷺ؛ لأنه أمر طبع عليه في بيانه، وقد يكون ذلك لأنه لم يعرف على التحديد والقطع فلم تتفق الكلمة في تحديده "فقيل: قُبيصة المخزوميّ، وقيل: صلاح غلام العباس بن عبد المطلب، وقيل: ابن شكوال، وقيل: مينا، وقيل: إبراهيم، وقيل: باقوم، بالميم في آخره، وقيل: رومي غلامٌ لسعيد بن العاص، مات في حياة النبي ﷺ ورُوي عن عباس بن سهل عن أبيه قال: كان بالمدينة نجار واحد يقال له ميمون، فذكر قصة المنبر، وقيل: غلام لسعد بن عبادة"[٢]، فلما لم يكن في التصريح به فائدة تعود على الأسلوب طرح في الروايتين .

وبينما اشتملت الجملة الثانية عند سيدنا أنس ﷺ على تلك الجملة النبوية السامقة بإيحاءاتها المستفيضة وموقعها البالغ في الإفادة والإصابة نلاحظ أن سيدنا جابرًا ﷺ يفصل في أمر اتخاذ المنبر فيرتب على جملته الأولى (يخطب إلى جذع نخلة) جملة (فَقَالَتْ امْرَأَةٌ مِنَ الْأَنْصَارِ كَانَ لَهَا غُلَامٌ نَجَّارٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ لِي غُلَامًا نَجَّارًا، أَفَلَا آمُرُهُ أَنْ يَتَّخِذَ لَكَ مِنْبَرًا تَخْطُبُ عَلَيْهِ؟) وهذه الجملة

(١) صحيح البخاري ١٩٥/٤ "كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام" حديث رقم (٣٥٨٤).
(٢) كوثَر المَعَاني الدَّرَارِي في كَشْفِ خَبَايا صَحِيحْ البُخَاري ٦/ ٤٦٥.

تبين أن اتخاذ المنبر جاء عن طريق العرض من المرأة دون أمر النبي ﷺ بذلك، وهذا له مردوده على حالة الجذع النفسية، ففرق بين أن يأمر النبي ﷺ باتخاذ المنبر وبين أن يكون ذلك عن طريق العرض المبذول له من أصحابه حبا وعرفانا، ورغبة في إكرامه وحرصا على راحته ﷺ.

ونلاحظ أن العطف هنا جاء بالفاء التي تفيد الترتيب والتعقيب السريع ولهذا العطف دلالتان: الأولى: أن هذه المرأة أرادت تكريم النبي ﷺ فرأت في استئذانه بأن يصنع ابنها له منبرًا تحقيقًا لذلك، وتكون قد استشعرت في نفسها عظم قدر النبي ﷺ ورأت أن الجذع لا يليق بمقامه الشريف، ولحظت ذلك؛ لأن ابنها يعمل نجارًا فهي أقرب الحضور التفاتا إلى هذا الأمر، ويساعد على هذا الفهم تقديم الجار والمجرور على المفعول في جملة (أَفَلَا آمُرُهُ أَنْ يَتَّخِذَ لَكَ مِنْبَرًا) فقدمت ما يتفق وغرضها، ويساعد على إبراز ما يهجس في خاطرها "كأنّهم إنَّما يقدّمون الذي بيانه أهم لهم وهم ببيانه أعنى، وإن كانا جميعًا يُهِمّانِهم ويَعْنِيانهم"[1] وفي سبيل هذا التكريم نكرت كلمة (منبرًا) وقد وضح آنفًا دلالة هذا التنكير، وهذا –أيضًا– يتفق مع غرضها في إبراز مكانة النبي ﷺ وحقه الوافر الذي يستدعى أن يكون في أعلى منزلة وأفخم مكان، لذا نراها تؤثر (على) التي تفيد الاستعلاء؛ حيث قالت: (تخطب عليه) وكل الروايات تعدّي هذا الفعل بـ (إلى) إشارة إلى مشقة الخطبة عليه واقفًا ﷺ وفي تعديتها الفعل بـ (على) جريًا مع حالتها النفسية وتكون بذلك قد لحظت أمرين، الأول : ضرورة أن يتحول النبي ﷺ من الجذع إلى المنبر، والآخر: أن يكون في مكان مرتفع بحيث يرى الناس ويُسمعهم .

(١) الكتاب لسيبويه ١/ ٣٤.

والدلالة الأخرى لعطف الجملة السابقة بالفاء يتمشى مع حالة المرأة النفسية، فهناك كان حرص على مقام رسول الله ﷺ وهنا حرص منها على الشرف الرفيع الذي تناله عندما يأذن لها النبي ﷺ في أن يصنع له ابنها المنبر، لذا ما إن رأته يخطب إلى الجذع حتى قالت مقالتها سريعا كأنها تخشى أن يسبقها أحد إلى هذا الفضل ويسلب منها ذلك الشرف، ويساعد على هذا الفهم قولها: (إن لي غلامًا نجارًا) فقدمت الجار والمجرور (لي) وقولها: (أَفَلَا آمُرُهُ) دون أطلب أو نحوه؛ لأن في الأمر معنى تحقق فعل المأمور به؛ لأنه صادر من الأعلى إلى الأدنى، وهذا أدعى إلى تحقق المأمور به وأدخل في محال الفخر بأن لديها مقومات ذلك الشرف الذي تبحث عنه .

وفي رواية سيدنا أنس ﷺ جاء الأمر ببناء المنبر من رسول الله ﷺ وهنا لم يأمر وإنما وافق على عرض المرأة بصنع المنبر، وكان جوابه عليها بقوله: (بلى) وفي رواية البخاري (إن شئتم) وهذا الجواب لا يرقى إلى درجة الأمر كما في رواية سيدنا أنس ﷺ فقد قلت: إن الأمر يباين العرض من الناحية النفسية على الجذع وعلى الحضور؛ لذا سوف نرى أن الأمر ترتب عليه شدة حنين الخشبة كما زاد تفاعل النبي ﷺ مع الجذع بينما خفّت حدّة الحنين، وقل تفاعل النبي ﷺ في رواية سيدنا جابر ﷺ؛ فقد أوكل النبي ﷺ صنع المنبر إلى مشيئة الصحابة في رواية البخاري فليس فيه ذلك الإيجاب والتأكيد، فالمشيئة "تكون لما يتراخى وقته"[١]

وجاءت خاتمة الجمل التمهيدية التي تسبق وقوع المعجزة عند سيدنا أنس ﷺ جملة مشحونة بالمعاني النفسية التي لها وقع شديد على الجذع قبل انفجاره، وهي قوله: (فَتَحَوَّلَ مِنَ الْخَشَبَةِ إِلَى الْمِنْبَرِ) وهي تفيد عن طريق العطف

(١) الفروق اللغوية ص١٢٨ .

بالفاء التحول السريع المباشر، فكأنه ليست هناك مدة زمنية بين بناء المنبر وتحول النبي ﷺ إليه، ثم في إيثاره (تحوّل) دون غيرها " والتَّحَوُّل: التَّنَقُّل مِنْ مَوْضِعٍ إِلى مَوْضِعٍ "[1]، لمزيد من الإلذاع والألم النفسي للجذع، وهذا أدعى لحزنه وكمده؛ لأنها تذكر دائمًا بالرحيل والانتقال، إضافة إلى النص على أن التحول كان من الخشبة إلى المنبر وقد كان يمكن الاكتفاء بكون التحول إلى المنبر دون ذكر بداية التحول وأنه من الخشبة كل ذلك يفيد التقرير والتوضيح لما يعتمل في نفس الجذع قبل انفجاره وهذه الجملة إذا أضفنا إليها الجملة النبوية: (ابنوا لي منبرًا) في أول الحديث تكشف لك كمدًا داخليًا لدى الجذع وكأنه يرصد الأحداث من بدايتها ويتمنى ألا يتم ذلك التحول، وهذا يدل على أن خيوطًا متينة تربط بين جمل سيدنا أنس ﷺ فهو دائمًا يؤسسها على أرض جدد لا تنهار تحوي بداخلها كثيرًا من الكنوز والأسرار .

ونلاحظ أن الجملة المقابلة لهذه الجملة عند سيدنا جابر ﷺ هي قوله: (فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ الْجُمُعَةِ خَطَبَ عَلَى الْمِنْبَرِ) وهي تختلف اختلافًا بينًا عن تعبير سيدنا أنس ﷺ فليس فيها تلك السرعة التي تلائم مقام الإعجاز ولا التركيز على المعاني النفسية للجذع، فالتعبير بـ (لما) لا تشعر فيه بالانتقال السريع المفاجئ، بل تشعر بامتداد زمني يقلل من سورة الإعجاز، وفي ذكره لزمان المعجزة (يوم الجمعة) نص على أنها وقعت يوم الجمعة، ويوضح بذلك ما أبهم في البداية ويتفق مع سيدنا أنس ﷺ على هذا التوقيت للمعجزة، إلا أن سيدنا أنسًا ﷺ ذكر زمان المعجزة في بداية كلامه على عادته في إلقاء الكلمة التي تخدم المقام في البداية، وهذا ما مكنه من ترتيب أحداث المعجزة على نحو لا يباري ولم نجد لذلك صدى في بيان سيدنا جابر ﷺ.

(١) لسان العرب (حول) .

المحور الثاني: الحديث عن المعجزة

في جانب الحديث عن المعجزة جاء بيان سيدنا جابر ﷺ قويًا معبرًا أيما تعبير فلقد أخبر أنه (سَمِعَ الْخَشَبَةَ تَحِنُّ حَنِينَ الْوَالِهِ) فإيثاره (سمع) يدل على شهوده للمعجزة ومشاركته لأحداثها عن طريق سماعه حنين الجذع، وهذا يدل على عظيم أثرها في نفسه وانفعاله البالغ بها ذلك الانفعال جعله يستخدم (تحن) بدلاً من حنَّتْ؛ استحضارًا لذلك المشهد الحزين الباكي .

بينما جاء تعبير سيدنا جابر ﷺ في هذا الصدد بقوله: (فَأَنَّ الْجِذْعُ الَّذِي كَانَ يَقُومُ عَلَيْهِ كَمَا يَئِنُّ الصَّبِيُّ) فعطف بالفاء ليفيد سرعة بكائه وأنينه بمجرد تحول النبي ﷺ عنه وخطبته على المنبر، ولا ريب في مناسبة هذا العطف لمقام الإعجاز، وقوله : (الَّذِي كَانَ يَقُومُ عَلَيْهِ) هي الجملة النفسية المقابلة لجملة سيدنا أنس ﷺ ذكرها سيدنا جابر ﷺ بعد التحول وبعد أنين الجذع، فخفت حدتها، ولم يكن لها ذلك الأثر العميق، كما كان لجملة سيدنا أنس ﷺ وكان يسوغ الكلام بدونها ولكن في ذكرها زيادة في حزن ذلك الجذع .

وعند تصوير المعجزة وبيان الحالة التي سيطرت على الجذع إزاء انتقال النبي ﷺ منه إلى المنبر اتفق الصحابيان الجليلان في امتطاء الصورة التشبيهية على اختلاف في التركيب مرجعه درجة انفعال كل منهما بالمعجزة، فاستخدم سيدنا أنس ﷺ لهذه الصورة أسلوب التشبيه البليغ فحذف أداة التشبيه مما أفسح للعقل مجال التوهم بأن المشبه والمشبه به شيء واحد، فقد عبر بقوله: (تحنُّ حنينَ الوالِهِ) أما سيدنا جابر ﷺ فعبر بقوله: (كما يئنُّ الصَّبي) فأفصح بأداة التشبيه فزالت تلك الرابطة العقلية وخفت حدة المعجزة تبعًا لذلك .

وفي جانب المشبه به استخدم سيدنا أنس ﷺ الحنين فعبر بقوله: (تَحِنُّ حَنِينَ الْوَالِهِ) بينما عبر سيدنا جابر ﷺ بالأنين (أنين الصبي)، وعند تحليل المشبه به عند الصحابيين الجليلين نجد أن تعبير سيدنا أنس ﷺ أقوى وأكثر مناسبة لمقام الإعجاز، فأين الأنين من الحنين ؟ فالحنين معناه "الشَّوْقُ وتَوَقانُ

النَّفس"[١] والحنين يحمل معنى الاشتياق الشديد والنزوع إلى المشتاق إليه ويكون معه في الأغلب صوت، وهذا الصوت يتناسب شدة وضعفًا مع قدر المشتاق إليه في النفس جاء في مقاييس اللغة: " الحاء والنون أصل واحد وهو الإشفاق والرقة وقد يكون ذلك مع صوت بتوجع، فحنين الناقة نزاعها إلى وطنها، "وَقَالَ قَوْمٌ: قَدْ يَكُونُ ذَلِكَ مِنْ غَيْرِ صَوْتٍ أَيْضًا، فَأَمَّا الصَّوْتُ فَكَالْحَدِيثِ الَّذِي جَاءَ فِي حَنِينِ الْجِذْعِ الَّذِي كَانَ يَسْتَنِدُ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَمَّا عُمِلَ لَهُ الْمِنْبَرُ فَتَرَكَ الِاسْتِنَادَ إِلَيْه". [٢]

أما تعبير سيدنا جابر ﷺ بالأنين فإنه بخلاف ذلك؛ فالأنين لا يحمل تلك المعاني الداخلية والإحساسات النفسية العميقة التي اشتملت عليها لفظة (حنَّ) بل يتعلق بالألم العضوي الناشئ من وجع في الجسم، فـ"أن الرجل يئن أنًا وأنينًا، إذا تأوه" [٣] فهناك فرق كبير بين اللفظتين؛ ففي الحنين شوق ورحمة وطرب وحزن، وليس في الأنين إلا الألم بله الألم الظاهر دون الألم النفسي الداخلي .

وتشبيه سيدنا أنس بلغ الذروة في الإصابة والإفادة لتشبيهه حنين الخشبة بحنين الواله، يقال: "ولهت المرأة على ولدها اشتد حزنها حتى ذهب عقلها وتولهت"[٤] و"الْوَلَهُ ذَهَابُ الْعَقْلِ وَالتَّحَيُّرُ مِنْ شِدَّةِ الْوَجْدِ"[٥] فصور سيدنا أنس ﷺ الجذع في حزنه ووجده على رسول الله ﷺ بهذه المرأة التي اشتد حزنها على ولدها حتى غمرتها الحيرة وذهب عقلها، ووجه الشبه الحزن الشديد والأسى العميق الذي يهد القوي ويأخذ الألباب، وقد قلت: إن هذا التشبيه بلغ الغاية في

(١) لسان العرب (حنن) .
(٢) مقاييس اللغة (حن).
(٣) جمهرة اللغة (أنن).
(٤) أساس البلاغة (وله).
(٥) مختار الصحاح (وله) .

الإصابة؛ لأن سيدنا أنسًا ﷺ ضمَّن تلك الصورة هاتين الكلمتين اللتين حوتا مراده واشتملتا على ما أراده من وصف الخشبة بحنين إلى رسول الله ﷺ لا يقادر قدره ، ولا يبلغ مداه، ومن ولَهٍ للعقل داهش وله ذاهب .

بينما عبر سيدنا جابر ﷺ بقوله: (أنين الصبي) وأين الصبي من الواله ؟ فالمشبه به هنا لم يرقَ إلى درجة نظيره عند سيدنا أنس ﷺ ؛ لأن أنين الصبي مهما بلغ في الشدة والقوة فلن يصل إلى ذهاب العقل وجسامة الرزء الذي يفهم من لفظ الواله، ثم إن المشاعر عند الصبي الصغير لم تنضج بعد فتتأثر بما يتأثر به الكبير من الوقائع والأحداث التي يشاهدها وعلى ذلك يختلف التأثير الناتج عن التشبيه بكليهما فعلى حين يقوى في الثاني يضعف في الأول، وقد جاء تعبيره في غير هذه الرواية بقوله:" سَمِعْنَا لِلجِذْعِ مِثْلَ صَوْتِ العِشَارِ"[١] وعند الدرمي:"حَنَّتِ الْخَشَبَةُ حَنِينَ النَّاقَةِ الْخَلُوجِ"[٢] وعند البخاري: "فَصَاحَتِ النَّخْلَةُ صِيَاحَ الصَّبِيِّ"[٣]

وفي الروايتين الأوليين تلحظ ضعف الحنين مقارنة برواية سيدنا أنس ﷺ فكل من الناقة العشراء والخلوج لن يصل حزنهما إلى التحير وذهاب العقل "والعُشَرَاءُ، بِضَم العَين وفَتْح الشين مَمْدُودَة، من النُّوق: الَّتِي مَضَى لِحَمْلِهَا عَشَرَةُ أَشْهُرٍ بعد طُرُوقِ الفَحْلِ"[٤]،"وَنَاقَةٌ خَلُوجٌ: جُذِبَ عَنْهَا وَلَدُهَا بِذَبْحٍ أَو مَوْتٍ فَحَنَّتْ إِليه وقَلَّ لِذَلِكَ لِبَنُهَا... والخلوج هِيَ الَّتِي اخْتُلِجَ وَلَدُها أَي انْتُزِعَ مِنْهَا"[٥] ، ومثل ذلك يقال في رواية البخاري فَصَاحَتِ النَّخْلَةُ صِيَاحَ الصَّبِيِّ لأن معنى"صيَّحَ

(١) رياض الصالحين ص٥١٠ حديث رقم (١٨٣١).
(٢) سنن الدارمي ١/ ١٨٠.
(٣) صحيح البخاري ٤/ ١٩٥ حديث رقم (٣٥٨٤).
(٤) تاج العروس (عشر).
(٥) ينظر لسان العرب (خلج).

صوَّت بأقصى طاقته"[١] و"صَاحَ بِالشَّيْءِ يَصِيحُ بِهِ صَيْحَةً وَصِيَاحًا صَرَخَ "[٢] فعلى هذا يكون الجذع قد أخرج صوتًا شديدًا تعبيرًا عن حزنه لفراق النبي ﷺ وعلى الرغم من أنها تفيد شدة حزنه لكنها لا تعطي ذلك البعد النفسي الذي تعطيه كلمة (حنَّ)؛ لأن الحنين فيه صوت إلا أنه صوت مليء بالرحمة والرقة قد هده الشوق، وأوهنه البعد .

لذا كانت الصورة التشبهية عند سيدنا أنس ﷺ مشرقة تناغي مقام الإعجاز وإن كان حنين الجذع من المعجزات الباهرة فقد صورا الجذع . وهو جماد . يحن ويئن ويتألم وهذا مكمن المعجزة وقد خلق الله في هذا الجذع الألم كما أنه قد خلق الكلام في الجماد بقوله: ﴿قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ﴾[٣] "وَفِي الْحَدِيثِ دَلَالَةٌ عَلَى أَنَّ الْجَمَادَاتِ قَدْ يَخْلُقُ اللَّهُ لَهَا إِدْرَاكًا كَالْحَيَوَانِ بَلْ كَأَشْرَفِ الْحَيَوَانِ وَفِيهِ تَأْيِيدٌ لِقَوْلِ مَنْ يَحْمِلُ وَإِن من شَيْء إِلَّا يسبح بِحَمْدِهِ على ظَاهره"[٤].

المحور الثالث: أثر المعجزة

أما عن أثر هذه المعجزة فقد جاء في تعبير سيدنا أنس ﷺ شيء من التفصيل والتدقيق لا تجد له صدى في كلام سيدنا جابر ﷺ، وهذا يدل على شدة انفعاله بها انفعالًا جعله لا يكتفي بتلك الصورة البيانية الرائعة الكاشفة لحالة الجذع حتى ضم إليها قوله: (فَمَا زَالَتْ تَحِنُّ حَتَّى نَزَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنِ الْمِنْبَرِ)، فهذه الجملة دلت على امتداد واستمرار بكاء الجذع، وكلمة (حتى) تطوي وراءها بعدًا زمنيًا يناسب حالة الجذع، فهو لم ينته عن حنينه وبكائه بعد فترة وجيزة بل بعد فترة بعيدة بكل ما تحمله هذه الكلمة من بعد .

---

(١) المحكم والمحيط الأعظم (صيح).

(٢) المصباح المنير (صيح) .

(٣) سورة فصلت من الآية (١١) .

(٤) فتح الباري ٦/٦٠٣.

وكأنى بسيدنا أنس ﷺ أراد أن يقرر هذه المعجزة ويجعل لها صدى في نفس المستمع فعبر بالماضي الذي يفيد تحقق استماعه سلفًا ويزيل الريب عن المستمع وهذا أدعى إلى تصديق ما يقول فعبر بـ(سمع) ثم في تعبيره بالمضارع (تحن) استحضارًا لمشهد المعجزة أمام عينيه، ثم في حذفه لأداة التشبيه تعويلاً على ذكائه وفطنته كل ذلك يجعل أثر المعجزة عظيمًا في النفوس .

أما سيدنا جابر ﷺ فلم يتعرض لبيان أثر المعجزة على نفسه ولا على الجذع كما فعل سيدنا أنس ﷺ ولكنه اكتفى بذكر علة بكاء الجذع على لسان رسول الله ﷺ فعطف على الجملة السابقة (فأن الجذع ...) قوله: (إِنَّ هَذَا بَكَى لِمَا فَقَدَ مِنَ الذِّكْرِ) ونلاحظ في تعبيره بـ (النبي) هنا وبعد أن تمت المعجزة قلة انفعاله بالمعجزة مقارنة بسيدنا أنس ﷺ الذي ذكر لفظ (الرسول) لأنه المناسب لمقام الإعجاز، كما نلاحظ أن تعليل النبي ﷺ يقلل سورة الإعجاز مقارنة بما ورد في رواية سيدنا أنس ﷺ؛ لأنه ليس من العجيب المستغرب أن يحن مخلوق إلى الذكر لكن العجب كل العجب من خشبة تخرج عن مألوف خلقتها وتتجاوز فطرتها، فتحن وتئن بصوت مكلوم على فراق رسول الله ﷺ على ما نطقت به رواية سيدنا أنس ﷺ.

وبينما لم يذكر سيدنا جابر ﷺ أي فعل للنبي ﷺ في روايته ختم سيدنا أنس ﷺ روايته بقوله: (فَمَشَى إِلَيْهَا فَاحْتَضَنَهَا، فَسَكَنَتْ) فهنا ترى ثلاث جمل تمثل ثلاثة أحوال مختلفة في إيجاز وتركيز بديع، عطفت ثلاثتها بالفاء لتفيد الترتيب السريع فجملة (فَمَشَى إِلَيْهَا) تدل على اهتمامه ﷺ وعطفه على الجذع . رغم أنه جماد . ولكن النبي ﷺ لعظمته وفضله تفاعلت معه كل عناصر الكون، وحدثت بينه وبينهم ألفة وحنين كالتي تكون بين البشر وبعضهم البعض، وقد

روى عنه سيدنا أنس ﷺ قوله عن أُحُد: "هَذَا جَبَلٌ يُحِبُّنَا وَنُحِبُّهُ"[١] وقوله: (فَاحْتَضَنَهَا) كالعلة والتفسير لمشيه ﷺ إلى الخشبة لتكف عن أنينها وحنينها؛ لذا جاء في مسند أبي يعلى الموصلي قوله ﷺ: "لَوْ لَمْ أَحْتَضِنْهُ لَحَنَّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ".[٢]

ونلاحظ أن سيدنا أنسًا ﷺ يعبر بـ(احتضن) دون حضن جريًا مع المبالغة التي يقتضيها المقام، فاللفظ إذا كان على وزن من الأوزان ثم نقل إلى وزن آخر أكثر منه فلابد من أن يتضمن من المعنى أكثر مما تضمنه أولًا؛ لأن الألفاظ أدلة على المعاني وأمثلة للإبانة عنها، فإذا زيد في الألفاظ أوجبت القسمة زيادة المعاني وهذا لا نزاع فيه لبيانه، وهذا النوع لا يستعمل إلا في مقام المبالغة"[٣] فاحتضانه ﷺ للجذع لكي يسكن ويقر قراره ويصل إلى مرفأ آمن تستريح فيه نفسه بعد هذا الجزع المتواصل والحزن العميق .

وقوله: (فَسَكَنَتْ) هي الجملة التي ترتبت على احتضان النبي ﷺ للخشبة وسكونها السريع إثر احتضانه ﷺ لها يدل على أن حنينها كان لفراق النبي ﷺ فما إن احتضنها حتى انقطع البكاء وزال الحنين، كما أن ذلك يعد تعريضًا بمن لم يحن إلى رسول الله ﷺ لهذا كان الحسن إذا حدث بهذا الحديث بكى ثم قال:" يَا عَبَّادَ اللَّهِ الْخَشَبَةُ تَحِنُّ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ شَوْقًا إِلَيْهِ لِمَكَانِهِ مِنَ اللَّهِ، فَأَنْتُمْ أَحَقُّ أَنْ تَشْتَاقُوا إِلَى لِقَائِهِ". [٤]وكان ذلك التفصيل من سيدنا أنس ﷺ؛ لأن الأمر ببناء المنبر جاء من رسول الله ﷺ (ابنوا لي منبرا) فتضاعف حنين الخشبة وزاد انفعال سيدنا أنس ﷺ بما حدث وتعددت أفعال النبي ﷺ من نزوله إلى الخشبة ومشيه

(١) مسند الإمام أحمد ١٧٨/٢١ حديث رقم (١٣٥٤٨) .
(٢) مسند أبي يعلى الموصلي ٦/ ١١٤ حديث رقم (٣٣٨٤).
(٣) المثل السائر ١٩٧/٢ .
(٤) مسند أبي يعلى الموصلي ٥/ ١٤٢ (٢٧٥٦).

إليها واحتضانه لها وكل هذا لم يكن له نظير في رواية سيدنا جابر . رضي الله عنهما .

وجملة سيدنا أنس ﷺ السابقة (فَمَشَى إِلَيْهَا فَاحْتَضَنَهَا، فَسَكَنَتْ) اختارها بعناية بالغة وجمالها لا يحد ولا يوصف، ولم يَحُم سيدنا جابر ﷺ حول محتواها، ولو قُدّر وفعل لكان أظهر للمعجزة لكن ما آثره من تعبير تمثل في نقله عبارة لرسول الله ﷺ فيها قطع للصلة بين شخصه الكريم وبين الجذع عن طريق نقل علة المعجزة إلى فقد الذكر الذي لم تمهد له إلا كلمة واحدة في روايته وهي كلمة (خطب) فكأن النتيجة عنده لم تُبنَ على مقدمات.

ونلاحظ في روايتي سيدنا أنس وسيدنا جابر –رضي الله عنهما–أن كلمة (المنبر) تكررت ثلاث مرات عند كل منهما، والتكرار يستعمل في المواقف ذات الامتلاء والحس الطاغي وكان يمكنهما التعبير بضميره، ولكن ذلك يفوت عليهما الفائدة التي حرصا على تسجيلها، وهي أن هذا المنبر له أهمية في سياق الحديث؛ فهو الذي ألهب فؤاد هذا الجذع وأبكاه وأورثه الأسى والنشيج فكرره لذلك.

كما نلاحظ أن سيدنا أنسًا ﷺ لم يتشعب تعبيره، وإنما كان موجهًا مركزًا لا تستطيع الاستغناء عن جملة واحدة من الجمل التي عبر بها، والجمل عنده ذات البناء الصغير تتكون من فعل وفاعل وأحيانا مفعولا به وهو الأكثر وشبه الجملة على الأقل، وكانت هذه الجمل القصيرة المتعاقبة بمثابه الطرق على جزء من المعجزة قصده سيدنا أنس ﷺ بعناية؛ لما له من أهمية في سياق المعجزة، فقد آثر ما يجلي المعجزة ويكشف جوانبها دون خوض في تفصيلات جانبية، أما عند سيدنا جابر ﷺ فقد طالت الجمل وصارت جملا متراكبة؛ فكل جملة تحمل جملة أخرى أو جملتين أو ثلاث جمل يمكنك معها حذف إحداها دون أثر كبير على المعنى المراد وقد استتبع ذلك أن وهج المعجزة عنده بدأ يقل مقارنة بما عند سيدنا أنس رضي الله عنهما.

المطلب الثاني: قوة أسلوب سيدنا جابر ﷺ في سياق معجزة إخبار الشاة للنبي ﷺ بأنها مسمومة.

اختلف أسلوب الصحابيين الجليلين في التعبير عن هذه المعجزة وإثباتها للنبي ﷺ فبينما تلطفت رواية سيدنا أنس ﷺ في استخدام الألفاظ والتعبيرات التي تكشف عن المعجزة وموقف اليهودية التي كانت وشاتها السبب في حدوثها نجد أن رواية سيدنا جابر ﷺ اعتمدت ألفاظًا أكثر شدة، وأكثر إيلامًا لليهودية، وقد قدم في كل رواية منهما ما يتفق وحالة المرأة من حيث رغبتها في قتل النبي ﷺ أو قلة تلك الرغبة، ومن ثم دار الأسلوب بين القوة أو الرقة والتلطف .

رواية سيدنا أنس ﷺ :

روى البزار بسنده عن أنس أنه قال: "...وَأَهْدَتِ امْرَأَةٌ يَهُودِيَّةٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ شَاةً سَمِيطًا فَلَمَّا مَدَّ يَدَهُ لِيَأْكُلَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِنَّ عُضْوًا مِنْ أَعْضَائِهَا يُخْبِرُنِي أَنَّهَا مَسْمُومَةٌ فَامْتَنَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَامْتَنَعَ مَنْ مَعَهُ فَأَرْسَلَ إِلَى الْيَهُودِيَّةِ فَقَالَ: مَا حَمَلَكِ عَلَى أَنْ أَفْسَدْتِهَا بَعْدَ أَنْ أَصْلَحْتِهَا؟ قَالَتْ: أَرَدْتُ أَنْ أَعْلَمَ إِنْ كُنْتَ نَبِيًّا فَإِنَّكَ سَتَعْلَمُ ذَلِكَ، وَإِن كُنْتَ غَيْرَ نَبِيٍّ أَرَحْتُ النَّاسَ مِنْكَ" وَهَذَا الْحَدِيثُ لَا نَعْلَمُ رَوَاهُ إِلَاّ يَزِيدُ عَنْ مُبَارَكٍ وَتَفَرَّدَ بِهِ أَنَسٌ». (١)

رواية سيدنا جابر ﷺ:

روى البيهقي بسنده عن جابر بن عبد الله أن يهودية أَهْدَتْ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ إِمَّا شَاةً مَسْمُومَةً، وَإِمَّا بَرَقًا مَسْمُوطًا مَسْمُومًا فَلَمَّا قَرَّبَتْهُ إِلَيْهِ، وَبَسَطَ الْقَوْمُ أَيْدِيهُم قَالَ: (أَمْسِكُوا فَإِنَّ عُضْوًا مِنْ أَعْضَائِهَا يُخْبِرُنِي أَنَّهَا مَسْمُومَةٌ) فَدَعَا صَاحِبَتَهَا فَقَالَ: (أَسَمَمْتِ هَذَا) ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، قَالَ: مَا حَمَلَكِ عَلَيْهِ ؟ قَالَتْ: أَحْبَبْتُ

(١) مسند البزار ٢٠٦/١٣ حديث رقم (٦٦٧٥).

إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا أَنْ أُرِيْحَ النَّاسَ مِنْكَ، وإِنْ كُنْتَ رَسُولًا أَنَّكَ سَتَطَّلِعُ عَلَيْهِ فَلَمْ يُعَاقِبْهَا".(١)

المحور الأول: التمهيد للمعجزة

بالنظر إلى الروايتين يلاحظ أن رواية سيدنا أنس ﷺ نكّرت المرأة التي دارت أحداث المعجزة حولها وحول شاتها، والتنكير أفاد معنى النكرة أي النوعية والإفراد؛ فالهدية كانت من امرأة وليس من رجل، وكانت من امرأة واحدة من النساء، وأفاد التنكير –كذلك– عدم معرفته ﷺ اسم المرأة، ولو عرفه لأشار إليه، وربما كان تنكيره للمرأة تحقيرًا لها؛ لأنها أقدمت على قتل النبي ﷺ. (٢)

ثم وصف المرأة بأنها (يهودية) وهذا الوصف حدد المرأة نوعًا من التحديد له أهمية في سياق الحديث، فهي امرأة تنتمي إلى هؤلاء القوم الذين طبعوا على الخيانة، فهي تجري منهم مجرى الدم في العروق، كما أومأ هذا الوصف إلى مخالفتها للنبي ﷺ في العقيدة؛ فهذا أدعى إلى ترقب الإساءة منها، فلا رادع ولا زاجر لها من عقيدتها، فالعداوة مستحكمة بين المسلمين واليهود قال تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ﴾ (٣).

أما رواية سيدنا جابر ﷺ ففيها حذف للموصوف (امرأة) اعتمادًا على فهم السامع لذلك بدلالة تأنيث صفتها، ولهذا الحذف مغزى هو أن ينصرف السامع إلى الصفة وما تثيره في النفس من تخيلات تعكس أفعال اليهود وقبائحهم، وأن فعل هذه المرأة لا يخرج عن أفعالهم الشيطانية اليهودية التي أفصح القرآن الكريم

(١) دلائل النبوة ٤/٢٦٠ .

(٢) اسم المرأة زَيْنَب بنت الْحَارِث امْرَأَة سَلام بن مشْكم. ينظر عمدة القاري ٢١/٢٩٠.

(٣) سورة المائدة من الآية (٨٢) .

عنها، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ (١) لذا حوت هذه الرواية من ألفاظ الفساد أكثر مما حوته نظيرتها .

ونلاحظ أن التعبير بـ (أهدت) قاسم مشترك بين الروايتين؛ لأن في التعبير بذلك مغزى فطنت له المرأة وهو أن النبي ﷺ كان يأكل مما أهديّ إليه ويأمر أصحابه بالأكل منه، ولا يأكل من الصدقة(٢) ونظرًا لأنها قصدت في المقام الأول أن يطعم النبي ﷺ مما قدمته اختارت أن يكون المقدم على سبيل الهدية؛ ليكون أدعى إلى قبوله، ولتقطع عليه بذلك كل سبب للرفض لأن "الهدية ما يتقرب به إلى المهدى إليه"(٣) وهذا مظهر من مظاهر الخيانة يتلاقى مع كلمة (يهودية) كما اشتركت الروايتان في التعبير بلفظ الرسالة الذي يتناغى مع سياق الإعجاز.

ونظرًا لأن الهدية تكون مبنية على المحبة والتكريم، فإن هذا التصرف منها يوحي بالتناقض الشديد بين ظاهرها وباطنها، فظاهرها يفيض بالتوقير والإعظام، وباطنها ينطوي على الغيظ والانتقام، وهذا مما يضاف إلى مظاهر خيانة تلك المرأة .

وبينما نصت رواية سيدنا أنس ﷺ على نوع الهدية وأنها (شَاةً سَمِيطًا) كان محل الهدية ونوعها موضع شك من سيدنا جابر ﷺ فهي إما (إِمَّا شَاةً مَسْمُومَةً) وإما (بَرَقًا مَسْمُوطًا مَسْمُومًا)(٤) وهذا الشك يومئ إلى عدم حضوره للمشهد وأنه يحكي أحداثه فحسب، والنص على الشاة في الروايتين له مغزى هو

(١) سورة المائدة من الآية (١٣) .

(٢) ينظر صحيح البخاري ١٥٥/٣ "كِتَابُ الهِبَةِ وَفَضْلِهَا وَالتَّحْرِيضِ عَلَيْهَا، باب قبول الهدية" حديث رقم (٢٥٧٦) .

(٣) الفروق اللغوية ص ١٧٦.

(٤) والبَرَق: الْحمَل وَهُوَ مُعرّب. وَأَصله بِالْفَارِسِيَّةِ: بره. غريب الحديث لابن قتيبة ٢/ ٦٠٤.

أن اليهودية درست خصائص النبي ﷺ في الأكل وعلمت أنه يحب الشياة ويحب من الشاة ذراعها، فيممت شطرها إلى الشاة، واتجهت بحيلتها إليها، ولم يكن ذلك بمحض المصادفة، فقد قال صاحب إرشاد السري: "وأكثرت من السمّ في الذراع لما قيل لها إنه عليه الصلاة والسلام يحبُّها"(١) وهذا من مظاهر الخيانة التي طبعت عليها تلك اليهودية.

وركّزت رواية سيدنا جابر ﷺ على كون المُهدى مسمومًا قطعًا، بخلاف رواية سيدنا أنس ﷺ؛ حيث لم يجْرِ فيها ذكر للسم إلا حال إخبار النبي ﷺ بذلك لحظة الإعجاز، ولهذا الأمر دخل كبير في ترتيب الأحداث وتتابعها في الروايتين، وهذا ما جعل الجملة التالية المعطوفة تختلف في مدلولها في الروايتين، ففي رواية سيدنا أنس ﷺ جاء التعبير بقوله: (فلما مد يده إليها ليأكلها) فذكرت إقدام النبي ﷺ على الأكل من هذه الشاة؛ حيث لم يجْر ذكر للسم ـ كما قلت . ولأنه سبق التعبير بقوله: (سميطًا) فهذا يستدعي الأكل؛ فهي شاة مهيئة نظيفة؛ "وَ(سَمَطَ) الْجَدْيَ نَظَّفَهُ مِنَ الشَّعْرِ بِالْمَاءِ الْحَارِّ لِيَشْوِيَهُ وَبَابُهُ ضَرَبَ وَنَصَرَ فَهُوَ (سَمِيطٌ) وَ (مَسْمُوطٌ)"(٢)؛ لذا نراه يعلل مد يده ﷺ بأنه كان للأكل من الشاة، لا ليتخلص منها، وأفاد هذا التعبير –أيضًا– أن المرأة كانت ذات حنكة بالغة ودهاء شديد؛ حيث وضعت السم بطريقة ماكرة، فلم تقدم شاتها حتى بالغت في تنظيفها وتجهيزها مما جعل النبي ﷺ يهم بالأكل وهذا من مظاهر خيانتها أيضًا .

ولكن التعبير وإن أفاد هذه اللفتة الذكية من هذه المرأة اليهودية، فقد أفاد – مع ذلك–لطف الله بعبده ورسوله وحمايته ورعايته؛ فالنبي ﷺ لم يُترك حتى يضع يده في الصحفة التي بداخلها الشاة بل بمجرد همه للأكل منها أُخبر على الفور

(١) إرشاد الساري ٤/ ٣٦١.

(٢) مختار الصحاح (سمط) .

بأن الشاة مسمومة، وقوله: (فَلَمَّا مَدَّ يَدَهُ لِيَأْكُلَ) أفاد هذه اللفتة البارعة وهي الرعاية التي يحيا بها وفيها المصطفى ﷺ فما إن هم بالأكل حتى نبهه وحذره عضو الشاة من السم.

أما رواية سيدنا جابر ﷺ فجاءت الجملة المعطوفة تفيد أن الهم بالأكل لم يصدر منه ﷺ وإنما صدر من الصحابة ففيها تعظيم للنبي ﷺ وصيانة له عن تناول الخبيث، والجملة هي قوله: (فَلَمَّا قَرَّبَتْهُ إِلَيْهِ، وبَسَطَ القومُ أَيْدِيَهُم) فعدم ذكر أكل النبي ﷺ هنا يتناسب مع مقام التعظيم الذي حاولت المرأة انتهاكه والتعدي عليه بما يفهم من قوله:(قَرَّبَتْهُ إِلَيْهِ) لأنه يفيد أنها قصدت أول ما قصدت قتل المصطفى ﷺ ولهذا آثرت تقريب الطعام إليه دون غيره.

ويفهم من الجملة الحالية (وبَسَطَ القومُ أَيْدِيَهُم) تكريم النبي ﷺ وصيانته عن تناول الشاة بخلاف الصحابة؛ فيبدو من التعبير بالبسط أن تكون أيديهم أصابت من الطعام المسموم شيئًا، ومما يؤكد هذا الفهم هو تنبيه النبي ﷺ لهم بقوله: (أمسكوا) فالإمساك لا يكون إلا عن عمل قد بدئ الخوض فيه؛ وعلى ذلك يكون الصحابة الكرام قد أقدموا على الأكل مما قدم إليهم فأمرهم النبي ﷺ نصحًا وإرشادًا أن يتركوا ما بأيديهم لفساده، وهذا بخلاف الروايات التي تذكر أن النبي ﷺ قد أكل من الشاة وأنها أثّرت على لهواتهﷺ وأنه إِذَا وَجَدَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا احْتَجَمَ، وأن سيدنا بشر بن البراء مات من أثر السُّمّ. (١)

(١) ينظر صحيح مسلم ١٧٢١/٤ "كتاب السلام ، باب السم" حديث رقم(٢١٩٠)، السنن الكبرى للبيهقي ٨/ ٨٤ "باب من سقى رجلا سما" حديث رقم (١٦٠١٢)، مسند الإمام أحمد ٦/٥ حديث رقم (٢٧٨٤)، فتح الباري ٧/ ٤٩٧.

المحور الثاني: الحديث عن المعجزة

تعد جملة: (إِنَّ عُضْوًا مِنْ أَعْضَائِهَا يُخْبِرُنِي أَنَّهَا مَسْمُومَةٌ) قاسمًا مشتركًا وموضع اتفاق بين الروايتين وهي من كلام رسول الله ﷺ وهي الأصل ومكمن المعجزة وموطنها الذي دارت حولها ألفاظ الروايتين، وقد جاءت في رواية سيدنا جابر ﷺ علة لقوله ﷺ: (أمسكوا) هذا الأمر النبوي الذي أفاد تنبيه الصحابة الذين بسطوا أيديهم بالأكل من الشاة أن يكفوا عن ذلك، بينما جاءت عند سيدنا أنس ﷺ لحظة أن مد يده ليأكل من الشاة، فكان امتناع الصحابة من الأكل مرتبا على إخبار النبي ﷺ لهم بخبر تلك الشاة.

ويلاحظ تنكير كلمة (عضوا) في الروايتين ومرجع ذلك . فيما يبدو لي . إلى تثبيت المعجزة وتأكيد قدرة النبي ﷺ على أن تجري على يديه خوارق العادات ويدخل في دائرة المعجزات فكل أعضاء الشاة تحت إمرته ورهن إشارته دون استثناء وهذا أبلغ من النص على عضو بعينه كاللسان، أو الذراع مثلًا ؛ لذا عبر بقوله: (عُضْوًا مِنْ أَعْضَائِهَا) وكأن الإخبار إن لم يتأت من هذا العضو تأتَّ من عضو آخر وهكذا، وقد يكون التنكير للإشارة إلى عدم سماع الصحابة للعضو المخبر، بل اقتصر السماع على النبي ﷺ لتكون المعجزة أتم وأكمل بخلاف ما إذا سمع الجميع، فهذا يقلل من حدّة المعجزة وكونها من المعجزات التي ظهرت على يديه ﷺ ؛ لأن الإسرار بالخبر هنا يعلي من شأن المعجزة وصاحبها، أما الجهر فيقلل من سورة الإعجاز لعموم المستقبلين لمكمن الإعجاز.

ويساعد على هذا الفهم وقوع الإخبار على ضمير النبي ﷺ (يخبرني) ففيه التصريح بأن العضو قصد النبي ﷺ بالخبر كرامة ومعجزة له ﷺ.

المحور الثالث: أثر المعجزة

كان من أثر المعجزة عند سيدنا أنس ﷺ أن رتب بفاء التعقيب امتناع النبي ﷺ عن الأكل من الشاة وامتناع أصحابه اقتداء به ﷺ وذلك في قوله: (فَامْتَنَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَامْتَنَعَ مَنْ مَعَهُ) فبمجرد أن أخبره العضو امتنع للحظته ؛ فالمنع " يكون عَن إِيجَاد الْفِعْل"[1] وبعد علم النبي ﷺ وتأكده التام بأن الشاة مسمومة تطلب الأمر استدعاء المرأة واستجوابها عما حدث فعطف بالفاء التي تفيد الترتيب والتعقيب دون مهلة في الروايتين، ففي رواية سيدنا أنس ﷺ جاء التعبير بقوله ﷺ: (فَأَرْسَلَ إِلَى الْيَهُودِيَّةِ) وأفاد التعبير بأرسل أن المرأة لم تكن قريبة منهم أثناء إقدامهم على الأكل، بل أهدت هديتها المسمومة وانطلقت لشأنها، وفي ذلك إشارة إلى أنها لم تجزم بكذب النبي ﷺ بل تميل إلى أنه صادق، فلم تنتظر حتى ترى ما يحدث بل اكتفت بسماعه فيما بعد .

أما رواية سيدنا جابر ﷺ فجاء العطف بالفاء –أيضًا– لما سبق من أنها أقدمت على قتل النبي ﷺ فليس هذا بالأمر السهل الذي يجوز فيه التباطؤ والتواني، لكن التعبير هذه المرة لم يأت بلفظ الإرسال كما كان هناك، بل جاء دقيقًا معبرًا مشتملًا على العديد من الإيحاءات والإشارات اللطيفة الهامسة، فجاء التعبير عن طلب المرأة بقوله: (فَدَعَا صَاحِبَتَهَا) وهذا يفيد أنها كانت قريبة منهم وحاضرة بخلاف ما كان هناك، ويومئ إلى خبث هذه المرأة وخبث نيتها وجرأتها وأنها تقصد أول ما تقصد قتل النبي ﷺ وهذا هو السبب الرئيس في الهدية لا شيء آخر ؛ لذا انتظرت قريبًا منهم لتتأكد من أكلهم الشاة المسمومة .

وما أجمل التعبير بقوله ﷺ (صاحبتها) وأنه لم يقل: (من أهدتها) مثلًا وكأن المرأة عندما وهبت شيئًا خبيثًا لم تنتقل ملكيته منها إلى ملك الموهوب له

(١) الفروق اللغوية ص ١١٧ .

بل ما زال تحت ملكيتها فهي أولى وأحق بالخبيث فهذا التعبير المجازي . مجاز مرسل بعلاقة اعتبار ما كان . يوجه أصابع الاتهام إلى هذه المرأة، ويشير إلى أنها ارتكبت جُرما لا سبيل إلى دفعه وإنكاره بل عليها أن تقر إقرارًا وتعترف اعترافًا بأنها ما أهدت شاتها المسمومة إلا لقتل النبي ﷺ .

ومما يؤكد هذا الفهم موقف النبي ﷺ من المرأة: (فقال) أي على وجه السرعة (أَسَمَمْتِ هَذَا؟) فهذا التركيب يفيد حملها على أن تقر بالفعل وهو وضع السم في الشاة، قال الشيخ عبد القاهر وهو يفرق بين (أفعلت، أأنت فعلت): "فإنه إذا قال : أفعلت؟ فهو يقرره بالفعل من غير أن يردِّده بينه وبين غيره، وكان كلامه كلام من يوهم أنه لا يدري أن ذلك الفعل كان على الحقيقة"[١] ولأن النكات البلاغية لا تتزاحم فإن هذا التعبير يدخل –أيضًا– تحت القالب البديعي المسمى بـ" تجاهل العارف " وهو سؤال المتكلم عما يعلمه حقيقة تجاهلاً منه به ليخرج كلامه مخرج المدح أو الذم ، أو ليدل على شدة التدله في الحب، أو لقصد التعجب، أو التقرير أو التوبيخ" [٢] ويكون الغرض –أيضًا– تقرير المرأة أو توبيخها على صنيعها أو ذمها لاجترائها على مقام النبوة، فالهمزة هنا كما قال الشيخ عبد القاهر "تقريرٌ بفعل قد كان، وإنكارٌ له لِمَ كان، وتوبيخٌ لفاعله عليه"[٣].

ولعل ذلك هو السبب في أن جاء الاستفهام هنا محولاً عن وجهه ومعدولاً به عما يناسب الموقف من السؤال كما هو واضح في رواية سيدنا جابر رضي الله عنه، وكان مقتضى الأصل أن يستفهم فيقول: لم سمت هذا ؟ لأنه تأكد لديه أنها مسمومة بدلالة إخبار العضو له ﷺ.

(١) دلائل الإعجاز ص ١١٤ .

(٢) تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن ص ١٣٥.

(٣) دلائل الإعجاز ص ١١٤ .

ويلاحظ في رواية سيدنا جابر ﷺ أن هذا السؤال جاء تقريرًا لما حدث وتمهيدًا للسؤال الأهم وهو العلة إلى ارتكاب اليهودية لفعلتها فقال ﷺ: (مَا حَمَلَكِ عَلَيْه؟) .

بينما خلت رواية سيدنا أنس ﷺ من هذا السؤال التقريري التمهيدي والسبب في ذلك أن رواية سيدنا جابر ﷺ قد سبق فيها ذكر السم مرتين فجاء ذكره في السؤال مرة ثالثة؛ ليوبخ المرأة ويزيد من جرعة الازدراء لها والإنكار عليها، أما رواية سيدنا أنس ﷺ ففيها تخلص إلى السؤال دون تمهيد؛ حيث قال النبي ﷺ : (مَا حَمَلَكِ عَلَى أَنْ أَفْسَدْتِهَا بَعْدَ أَنْ أَصْلَحْتِهَا؟) فجاء السؤال عن الحامل على إقدام المرأة لقتل النبي ﷺ في هذا القالب البديعي الأخّاذ حيث طابق بين أفسدتها وأصلحتها، فالسؤال هنا يقطر باللوم والعتاب العنيف على هذه المرأة التي أفسدت هديتها أيما فساد، وكانت كالتي نقضت غزلها بعد أن جهدت في غزله دون محاولة تجريم المرأة أو تقريرها بفعلتها كما في رواية سيدنا جابر ﷺ؛ ولهذا ورد في هذه الرواية ذكر الفساد والصلاح وكأن القضية لم تكن قضية شروع في قتله ﷺ بل قضية امرأة أفسدت الطعام بوضع السم فيه، فذكر الفساد والصلاح هنا جريًا مع السياق الهادئ الذي لا يميل إلى التهويل من صنيع اليهودية بخلاف الرواية الأخرى .

ثم إن جواب المرأة عن سؤال النبي ﷺ جاء واحدًا في الروايتين ولكن تقدم في كل منهما ما يتفق مع السياق، فجاء جوابها في رواية سيدنا أنس ﷺ قولها : (قَالَتْ: أَرَدْتُ أَنْ أَعْلَمَ إِنْ كُنْتَ نَبِيًّا فَإِنَّكَ سَتَعْلَمُ ذَلِكَ، وَإِن كُنْتَ غَيْرَ نَبِيٍّ أَرَحْتُ النَّاسَ مِنْكَ) وهذا الجواب يحتوي على العديد من اللطائف التي تسترعى الانتباه، وتستأهل الوقوف عندها؛ فهو يوحي بحرص المرأة حرصًا ما على تجلية أمر النبي ﷺ وبيان حقيقة أمره، فلم تكن تقصد اللهو والمغامرة ، بل فعلت ذلك لتتأكد من حقيقة مالت إليها بقلبها، واستولت على تفكيرها، وهي صدق نبوته ﷺ يؤكد ذلك ما استخدمته من ألفاظ وتعبيرات منها التعبير بـ (أردت) والذي يفيد شدة

الرغبة في التحقق من الأمر، ولكون الإرادة "لا تتعلق إلا بالمستقبل" [١] ناسبت هذا السياق؛ لأن المرأة هنا لم تتعجل نتيجة فعلها بل قدمت هديتها، وانطلقت لشأنها .

وقولها : (أن أعلم) يفيد أن الأمر لم يكن مجرد تجربة منها بل كان لهدف الوصول إلى الحق؛ فالعلم هو "اعتقاد الشيء على ما هو به على سبيل الثقة كان ذلك بعد لبس أو لا"[٢] فاستعمال العلم يشير إلى أنها أرادت الوصول إلى الحق أو أنها مالت إلى كونه نبيًا ﷺ ويؤكد هذا الفهم تقديمها للمقطع المشتمل على النبوة: (إن كنت نبيًا) على المقطع المقابل وهو قولها: (وإن كنت غير نبي) فقدمت الأهم بالنسبة لها؛ لأنه محط عنايتها، ومحل نظرها، ومن أجله فعلت ما فعلت، وإن جافت طريقتها تلك فعل العقلاء في استكناه الأمور وبلوغ الحقائق، وجواب الشرط هنا جاء متناغيًا مع التقديم حيث قالت: (فإنك ستعلم) فأكدت بإنّ، وكررت لفظ العلم، وهذا التكرار يعمق من إحساسها بصدق نبوته ﷺ ومن دلائل ذلك الإحساس كذلك تلطفها في التعبير؛ فلم تسف ولم تجنح إلى تعبير لا يليق في مقابل مقام النبوة، بل اكتفت بقولها: (غير نبي) .

أما في رواية سيدنا جابر ﷺ فجاء جوابها على العكس من الجواب في رواية سيدنا أنس ﷺ؛ حيث قدمت ما يتفق مع السياق المشعر بخبث طوية المرأة فكان جوابها أن قالت: (أَحْبَبْتُ إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا أَنْ أُرِيحَ النَّاسَ مِنْكَ، وإِنْ كُنْتَ رَسُولًا أَنَّكَ سَتَطَّلِعُ عَلَيْهِ فَلَمْ يُعَاقِبْهَا) فهذا الجواب يفيد حرص المرأة على قتل النبي ﷺ وشكها في نبوته شكًا انعكس أثره على جوابها، فقدمت ما يبرز شكها وهو قولها: (أَحْبَبْتُ إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا أَنْ أُرِيحَ النَّاسَ مِنْكَ) فأين الحب هنا من العزم والتصميم والإرادة هناك ؟ فالتعبير بـ (أردت) أقوى من التعبير بـ(أحببت) لأن "المحبة تجري على الشيء ويكون المراد به غيره، وليس كذلك الإرادة تقول:

(١) الفروق اللغوية : ص ١٢٧ .

(٢) الفروق اللغوية ص ٩٧.

أحببت زيدًا والمراد: أنك تحب إكرامه ونفعه"[١] كما أن التعبير بها يناسب السياق؛ لأن المحبة "تتعلق بالملاذ وغيرها" [٢] فهي غير متمحضة الدلالة على التعلق بما هو خير والمرأة هنا أقدمت على شر لا على خير .

ونلاحظ أنها قدمت كونه (كاذبًا) . حاشاه . جريا مع هذا السياق الذي يهدر بالشك، ولم تتلطف في التعبير حين نسبت النبي ﷺ إلى الكذب وإن كان مشكوكا في وقوعه، وهذا ما يتناسب مع السياق الذي ورد فيه ذكر لفظ السم أربع مرات .

وفي مقابل الشرط السابق جاء قولها: (وإِنْ كُنْتَ رَسُولًا أَنَّكَ سَتَطَّلِعُ عَلَيْهِ فَلَمْ يُعَاقِبْهَا) ونجد فيه ضعف النبرة وضعف الأداء، فهي وإن وصفته ﷺ بالرسالة هنا إلا أن ذلك يرجع إلى تهكم منها وشك في صدقه ﷺ فإحساسها المفهوم من السياق لا يرقى إلى وصفه بذلك، كيف وقد قدمت على هذا التعبير قولها: (إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا) فقدمت ما اعتنت به واعتقدته في قرارة نفسها.

وضعف نغمة التعبير وضحت كذلك في جواب هذا الشرط فأين: (أَنَّكَ سَتَطَّلِعُ عَلَيْهِ) هنا من (فإنَّكَ تَعْلمُ ذلك) هناك، فليس في الاطلاع سوى معنى كونه "من إشراف إلى انحدار"[٣] فكل ذلك يؤكد أن المرأة كان يسيطر عليها الشك في صدقه ﷺ .

لذا ختمت هذه الرواية بقول سيدنا جابر ﷺ: (فَلَمْ يُعَاقِبْهَا) ولم يرد هذا التعبير في رواية سيدنا أنس ﷺ، وكانت هنا مناسبة تمامًا للسياق الذي ذكر فيه لفظ السم أربع مرات؛ ولأنها لم تحترم مقام النبوة، ولما في صنيعها من اجتراء وتهكم من النبي ﷺ لكنه لم يعاقبها عفوًا وحلمًا منه ﷺ وحكام الدنيا لا تعرف لهذه ولأمثالها إلا قطع الرقاب .

(١) السابق ص ١٢٥ .

(٢) السابق والصفحة نفسها.

(٣) مختار الصحاح (طلع) .

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد،،،

فقد توصلت الدراسة إلى نتائج تمثل سمات اتفق فيها الصحابيان الجليلان، ومنها نتائج تمثل سمات انفرد بها كل واحد منهما:

السمات التي اتفق فيها سيدنا أنس وسيدنا جابر رضي الله عنهما:

- إشباع المعنى بالإطناب والتفصيل تبعًا لحضورهما المعجزة، أو شدة انفعالهما بها رضي الله عنهما . وغالبا ما يكون التكرار وسيلة إلى ذلك .
- الدقة البالغة في التعبير عن المراد من خلال وضع الألفاظ على حاقّ المعاني والتخير من أحوالها ما ينكشف به لب المعنى، مع التناغم التام مع السياق إيجازا وإطنابا.
- الدقة في استخدام حروف العطف ووضعها في مواضعها اللائقة بها .
- ذكر الزمان أو المكان في بداية الكلام عند الميل إلى الإيجاز؛ لأن ذلك مما يعين على سرد الأحداث بطريقة منظمة مركزة .
- مسألة حضور المعجزة متأرجحة بين ميل إلى الايجاز؛ طلبا للاختصار والاكتفاء بالأهم من الأحداث، وبين ميل إلى الإطناب؛ رغبة في عرض تفاصيل القصة المثيرة.
- ذِكر حال الصحابة سمت ظاهر عند الصحابيين الجليلين عند إرادة التفصيل.

السمات التي انفرد بها سيدنا أنس ﷺ

- يصدر سيدنا أنس ﷺ بيانه بالكلمات التي لها من الدلالة القدر الكبير في تصوير المعنى وتمثيله، وتبين الغرض من الكلام فهي قريبة بذلك مما يسميه البديعيون الإرصاد أو التسهيم بطريقة أوسع وأشمل، إضافة إلى أن

في عباراته تركيزا ووصولا إلى الغرض منقطع النظير؛ فلا يذكر إلا ما له اعتلاق بما يصبو إليه من معنى.

- التعبير بالماضي الذي يفيد تحقق وقوع الفعل، وهذا ناتج من قربه من النبي ﷺ ومعايشته لأحواله، فكان بذلك المرجع الأول فيما يتصل بالنبي ﷺ من أقوال وأفعال وعادات ...إلخ.
- من عناصر الإطناب الاصطلاحية عند سيدنا أنس ﷺ الإيضاح بعد الابهام والتكرار، وتعد (كان) من عناصر الإطناب غير الاصطلاحية عنده؛ لأنه يجعلها آية على إرادة التفصيل.
- لسيدنا أنس ﷺ قسمات بيانية لا تخطئها عين كانت أثرا ونتاجا لقربه من النبي ﷺ وخدمته له تمثلت في لغته الواثقة التي تعبر عن أدق تفاصيل ما حكاه عن النبي ﷺ من مثل: (رأيت، سمعت، كان النبي ﷺ، فما زالت تحن وغير ذلك...) بينما ترى سيدنا جابرًا ﷺ يقول: (غزونا أو سافرنا، شجرة أو نخلة، إما شاةً مسمومةً أو بَرَقًا مسموطًا مسمومًا) على التردد وعدم القطع والحزم.

السمات التي انفرد بها سيدنا جابر ﷺ

- يغلب عليه إسناد الفعل إلى ضمير المتكلمين "نا" فيقول: (غزونا، سافرنا، أقبلنا) لأنه يريد أن يضفي على كلامه صفة الاشتهار؛ فلم يكن كسيدنا أنس ﷺ في قربه من النبي ﷺ حتى يروي عنه منفردًا أحوالا خاصة به ﷺ.
- يميل سيدنا جابر ﷺ إلى القسم لتأكيد ما يريد إثباته من المعاني .
- سيدنا جابر ﷺ أقدر على وصف أحوال النبي ﷺ الخارجية من سيدنا أنس - رضي الله عنهما . **وتوصي الدراسة** بتتبع سمت بيان الصحابيين الجليلين في كتب السنة كلٌّ على حدة، أو على سبيل المقارنة، وأقرب باب لذلك هو باب العبادة؛ لاحتوائه على قدر -لا بأس به- من بيانهما صالح للدراسة، كما توصي الدراسة بتوسيع دائرة البحث لتشمل بيان الصحابة الكرام المبثوث في كتب الحديث.

فهرس المصادر والمراجع

القرآن الكريم جل من أنزله.

- الإتيان والمجيء فقه دلالتهما واستعمالهما في القرآن الكريم – د . محمود موسى حمدان– مكتبة وهبة– ط . أولى ١٤١٨هـ . ١٩٩٨م.
- إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري– أحمد بن محمد بن أبى بكر بن عبد الملك القسطلاني القتيبي المصري، أبو العباس، شهاب الدين (المتوفى: ٩٢٣هـ)– المطبعة الكبرى الأميرية، مصر–الطبعة: السابعة، ١٣٢٣ هـ.
- أساس البلاغة – لأبي القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري جار الله– دار الفكر ١٣٩٩هـ . ١٩٧٩م.
- الإشارات والتنبيهات . لمحمد بن علي بن محمد الجرجاني – تحقيق أ. د عبد القادر حسين– مكتبة الآداب . ط ١٤١٨هـ– ١٩٩٧م.
- إعجاز القرآن . للإمام القاضي أبي بكر محمد بن الطيب الباقلاني (المتوفى: ٤٠٣هـ) تحقيق السيد أحمد صقر–دار المعارف – مصر–الطبعة الخامسة، ١٩٩٧م.
- أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل– زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي (المتوفى: ٦٦٦هـ)–تحقيق: د. عبد الرحمن بن إبراهيم المطرودى –دار عالم الكتب المملكة العربية السعودية – الرياض–الطبعة: الأولى، ١٤١٣ هـ، ١٩٩١م.
- بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح . لعبد المتعال الصعيدي مكتبة الآداب الطبعة السادسة عشرة ١٤٢٦هـ . ٢٠٠٥م.
- تاج العروس من جواهر القاموس . لمحمد بن محمد بن عبد الرازق الحسيني، أبو الفيض، الملقب بمرتضى الزبيدى – تحقيق مجموعة من المحققين – دار الهداية .

- تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن . عبد العظيم بن الواحد بن ظافر بن أبي الإصبع العدواني، البغدادي ثم المصري (المتوفى: ٦٥٤هـ) – تقديم د.حفني محمد شرف– الجمهورية العربية المتحدة – المجلس الأعلى للشئون الإسلامية– لجنة إحياء التراث الإسلامي.
- تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي . للمباركفوري . خرج أحاديثه عصام الضبابطي . دار الحديث . الطبعة الأولى ١٤٢١هـ . ٢٠٠١م.
- الجمع بين الصحيحين البخاري ومسلم . لمحمد بن فتوح الحميدي – تحقيق د . علي حسين البواب. دار ابن حزم لبنان . بيروت . ط . الثانية ١٤٢٣هـ . ٢٠٠٢م.
- جمهرة اللغة . لأبي بكر محمد بن الحسن الأزدي البصري – دار صادر . بيروت . ط . الأولى . مجلس دائرة المعارف العثمانية . حيدر آباد ١٣٥١هـ .
- الجنى الداني في حروف المعاني . للحسن بن قاسم المرادي – تحقيق د . فخر الدين قباوة ، والأستاذ محمد نديم فاضل. دار الكتب العلمية . بيروت . ط . أولى ١٤١٣هـ . ١٩٩٣م.
- خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني– للدكتور محمد محمد أبو موسى– مكتبة وهبة–الطبعة السادسة ١٤٢٥هـ–٢٠٠٤م.
- دلالات التراكيب . للدكتور محمد محمد أبو موسى . مكتبة وهبة– الطبعة الثالثة ١٤٢٥هـ . ٢٠٠٤م.
- دلائل الإعجاز. للشيخ الإمام أبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الجرجاني النحوي . قرأه وعلق عليه أبو فهر محمود محمد شاكر– مكتبة الخانجي– القاهرة . ط . الخامسة ١٤٢٤هـ . ٢٠٠٤م.

- دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة– للإمام الحافظ أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي البيهقي(٣٨٤–٤٥٨)علق عليه الدكتور عبد المعطي قلعجي–دار الكتب العلمية –بيروت لبنان–الطبعة الثالثة ٢٠٠٨م–١٤٢٩هـ.
- رسالة في الطريق إلى ثقافتنا . لأبي محمد محمود محمد شاكر –الشركة الدولية للطباعة–الطبعة الثانية ١٤٢٧هـ – ٢٠٠٦م.
- رياض الصالحين لأبي زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي (المتوفى: ٦٧٦هـ)–تحقيق: الدكتور ماهر ياسين الفحل رئيس قسم الحديث – كلية العلوم الإسلامية – جامعة الأنبار – دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق – بيروت–الطبعة: الأولى، ١٤٢٨ هـ – ٢٠٠٧م.
- السنن الكبرى–لأحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ)–تحقيق: محمد عبد القادر عطا–دار الكتب العلمية، بيروت – لبنات الطبعة الثالثة، ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٣م.
- شرح أحاديث من صحيح البخاري دراسة في سمت الكلام الأول . للأستاذ الدكتور محمد محمد أبو موسى– مكتبة وهبة . القاهرة . ط . الأولى ١٤٢١هـ . ٢٠٠١م.
- شرح مواهب الفتاح . لابن يعقوب المغربي على تلخيص المفتاح . لجلال الدين القزويني . تحقيق د. عبد الحميد هنداوي. المكتبة العصرية . بيروت . ط . الأولى ١٤٢٦هـ . ٢٠٠٦م.
- صحيح البخاري . تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر . دار طوق النجاة . (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي) الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ .

- الطبقات الكبرى- لمحمد بن سعد بن منبع الهاشمي البصري المعروف بابن سعد-تحقيق محمد عبد القادر عطا-دار الكتب العلمية -بيروت-١٣٨٨هـ-١٩٦٨م.
- عمدة القاري شرح صحيح البخاري-لأبي محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين الغيتابى الحنفى بدر الدين العينى (المتوفى: ٨٥٥هـ)- دار إحياء التراث العربي – بيروت.
- فتح الباري شرح صحيح البخاري- لأحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي-دار المعرفة – بيروت ١٣٧٩-رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي-قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب-عليه تعليقات العلامة: عبد العزيز بن عبد الله بن باز.
- الفروق في اللغة. للإمام الأديب اللغوي أبي هلال العسكري- تحقيق أبي عمرو عماد زكي البارون. المكتبة التوفيقية . أمام الباب الأخضر – سيدنا الحسين.
- كتاب الصناعتين الكتابة والشعر . لأبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري . حققه د . مفيد قميحة. دار الكتب العلمية . لبنان . بيروت . ط . الثانية ١٤٠٩هـ . ١٩٨٦م.
- كتاب العين . لأبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي-الناشر دار ومكتبة الهلال . تحقيق . د . مهدى المخزومي ، و د .إبراهيم السامرائي .
- الكتاب- لعمرو بن عثمان بن قنبر الحارثي بالولاء، أبو بشر، الملقب سيبويه (المتوفى: ١٨٠هـ)-تحقيق: عبد السلام محمد هارون-مكتبة الخانجي، القاهرة-الطبعة: الثالثة، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨م.
- كوثَر المَعَاني الدَّرَارِي في كَشْفِ خَبَايا صَحِيحْ البُخَاري-لمحمَّد الخَضِر بن سيد عبد الله بن أحمد الجكني الشنقيطي (المتوفى: ١٣٥٤هـ)- مؤسسة الرسالة، بيروت-الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥م.

- لسان العرب . لمحمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري –دار صادر ، بيروت . ط . أولى.
- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر لضياء الدين ابن الأثير تعليق وتقديم – د . أحمد الحوفي ، د ، بدوي طبانة. ط . نهضة مصر.
- المحكم والمحيط الأعظم . لأبي الحسن على بن إسماعيل بن سيده المرسي . تحقيق عبد الحميد هنداوي– دار الكتب العلمية . بيروت . ٢٠٠٠ م.
- مختار الصحاح زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي (المتوفى: ٦٦٦هـ)تحقيق: يوسف الشيخ محمد– المكتبة العصرية – الدار النموذجية، بيروت – صيدا–الطبعة: الخامسة، ١٤٢٠هـ / ١٩٩٩م.
- مراجعات في أصول الدرس البلاغي . للأستاذ الدكتور محمد محمد أبو موسى – مكتبة وهبة . ط . الثانية ١٤٢٩هـ . ٢٠٠٨م.
- مسند أبي يعلى –لأبي يعلى أحمد بن علي بن المثُنى بن يحيى بن عيسى بن هلال التميمي، الموصلي (المتوفى: ٣٠٧هـ)–تحقيق: حسين سليم أسد– دار المأمون للتراث – دمشق–الطبعة: الأولى١٤٠٤هـ – ١٩٨٤م.
- مسند الإمام أحمد . للإمام أحمد بن حنبل . تحقيق : شعيب الأرناؤوط وآخرون . مؤسسة الرسالة . الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ . ١٩٩٩م.
- مسند البزار . للعلامة البزار ت سنة ٢٩٢هـ . طبعة مكتبة العلوم والحكم .
- مسند الحميدي . لعبد الله بن الزبير أبو بكر الحميدي . تحقيق – حبيب الرحمن الأعظمي – دار الكتب العلمية ، مكتبة المتنبي . بيروت، والقاهرة .
- مسند الدارمي المعروف بـ (سنن الدارمي)لأبي محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بَهرام بن عبد الصمد الدارمي، التميمي السمرقندي (المتوفى: ٢٥٥هـ)–تحقيق: حسين سليم أسد الداراني–دار المغني للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية–الطبعة: الأولى، ١٤١٢ هـ – ٢٠٠٠ م.

- المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ لمسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ)–تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي–دار إحياء التراث العربي – بيروت.
- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير–لأحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي، أبي العباس (المتوفى: نحو ٧٧٠هـ)–المكتبة العلمية – بيروت.
- المفردات في غريب القرآن . لأبي القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني . راجعه وقدم له وائل أحمد عبد الرحمن –المكتبة التوفيقية .
- مقاييس اللغة . لأبي الحسين أحمد بن فارس بن زكريا . تحقيق عبد السلام محمد هارون– اتحاد الكتاب العربي ط . ١٤٢٣هـ . ٢٠٠٢م.
- النبأ العظيم . للدكتور محمد عبد الله دراز . تحقيق الشيخ –أحمد مصطفى فضيلة. دار القلم للنشر –الطبعة العاشرة سنة ١٤٢٩هـ . ٢٠٠٨م.
- نظرات بيانية في قصيدة جعفرية (دار الحبيب أحق أن تهواها) للأستاذ الدكتور علي عبد الحميد أحمد عيسى . مجلة كلية اللغة العربية بأسيوط . مطبعة الأمانة . العدد الثامن عشر ١٤١٩هـ . ١٩٩٩م .